

روايات عبير



sarah

آت ميثر

المساضي لا يعود



الماضي لا يعود

أخطأت مادلين مرة في شبابها، إلا أنها هرعت تحتضن الشرة بكل ما أوتيت من حب وحنان وتضحية . وعملت جهدا كي تنشأ ابنتها ديانا في جو عائلي لا تشوبه شائبة . فتزوجت رجلا لم يكن بحاجة الى زوجة بقدر حاجته الى مديرة لمنزله . لكن القدر شاء أن يموت هذا الرجل وتبقى مادلين أرملة مع ابنتها الوحيدة ديانا.

في عالمها رجل واحد هو العم أدريان الذي يتمتع بكل الصفات الأبوية ويرشح نفسه ليكون زوجا لمادلين في المستقبل . لكن ظهور رجل يدعى السيد فيتال الرئيس العام لشركة سيارات أجنبية في المنطقة حيث تعيشان . قلب المقاييس وغير الاحتمالات . كيف تتصرف مادلين حيال ابنتها التي رببت في جو لا يعرف المفاجأة . خاصة أن أمها انجذبت بقوة الى ذلك الاباطالي الغريب ... وتتأثر ديانا الى حد اليأس والفرار . لكن من ينقذ حياتها في اللحظة الحاسمة ؟ وكيف يتأكد الجميع في هذه الرواية أن الماضي لا يعود ؟

العنوان الاصيل لهذه الرواية بالانكليزية

PILGRIM'S CASTLE

sarah

١ - البنت وأمها

liilas.com

طوت مادلين آخر رسالة ووضعتها في الظرف وأغلقته سعيدة شاكرة، وتلفتت الصعداء. ثم وضعت الغطاء البلاستيك على ألثها الكتابة، وأغلقت درجها بالمفتاح، ودست المفاتيح في حقيبتها. وبينما كانت تسير إلى الباب التقطت سترتها المصنوعة من الجلد وارتدتها وهي تمر ببصرها في أرجاء الغرفة لتتوقن من أن كل شيء مرتب في عطلة نهاية الأسبوع. وعندما ارتاحت إلى ذلك فتحت الباب وخرجت.

كانت الممرات الطويلة، التي كسيت أرضيتها بالمطاط، تمتد أمامها، وتحيط بها على الجانبين فصول دراسية ومزيد من الممرات. وكانت تبدو الآن بغير الحشود المثرثرة من الأولاد، عارية مقفرة لأحياة قبيها. ولجأة ظهر جورج جاكسون، بواب المدرسة، من أحد الأركان الكثيرة واتخذ طريقه إليها. فالتصمت مادلين حين رآته يقترب، إذ كانت ولوعة بالخارج المسن، الذي كان يرمي الأمور بكفاءة عالية.

تسامل وهو يقترب منها:

«ألم تذهبي بعد ياسيدة سكوت؟ تعلمين أن الساعة تجاوزت الخامسة.»

أومأت مادلين برأسها، وقالت:

«أنا ذاهبة الآن يا جورج. تركت الرسائل القليلة الأخيرة على مكثتي كالعادة.»

قال جورج، وهو يبحث في جيوبه عن غليونه:

«حسناً، سأتولى أمرها، اذهبي الآن يا عزيزتي، فإن ابتك ستستسامل أين أنت.»

قالت مادلين ، وهي تبسم مرة أخرى :

«قد تكون على صواب ، أراك يوم الاثنين.»

ومضت عبر الممر ، وكعب حذاءها لا يكاد يحدث صوتاً ومع أن المدرسة كانت خالية ، كان فيها ما يجذبها إليها. وكانت تستمتع بالعمل هناك كسكرتيرة للنظر-أديان سكلير . كانت سكرتيته لأكثر من خمس سنوات الآن ، منذ جاء إلى أوتربري .

وكان مدخل هيئة التدريس يفضي إلى مكان وقوف السيارات ، التابع للمدرسة ، و مادلين ، التي تمتلك دراجة بخارية سكوتر مشت بسرعة إلى حيث كانت أوقفنها. وكانت الدراجة البخارية هي الآلة الوحيدة المتروكة في المكان ، وبينما كانت تدفع بقدميها أداة التشغيل ، ارتعدت . كان الوقت في أواخر مارس /أذار ومع ذلك كان الهواء لا يزال بارداً برودة الثلج في الصباح والمساء. ولم يكن ركوب الدراجة البخارية يبعث على البهجة كأشهر الصيف الدافئة.

مضت راكبة إلى باب الخروج ، وتباطأت وهي تصل إلى الطريق الرئيسي. كان المرور يتدفق بجوارها، وكان معظم المارين من العمال الذين غادروا مصنع السيارات القريب، ومع أن أوتربري كانت بلدة صغيرة ، إلا أن المصنع الجديد الكبير الذي قام على مشارفها زاد من حجم التعداد إلى حد كبير وكانت هناك بيوت تبنى تدريجياً ليقيم فيها الرجال الذين كانوا في الوقت الحاضر يرحلون إلى عملهم من أماكن بعيدة.

وعندما توقفت حركة المرور قليلاً دخلت مادلين بجوارها الرئيسي، وغيرت سرعتها وكانت تستمتع بشعور الحرية الذي تتيحه لها الدراجة البخارية. أما المركبات المنيرة بالمحط، التي كانت تندفع جشودها بجوارها فلم تكن لتضاهيها كثيراً. لم تشعر بأنها عصبية، ولم تكن كذلك أبداً وهي تقود وكان ركوب الدراجة البخارية لا يستغرق منها سوى جهد ضئيل.

وفجأة مرت بجوارها مسرعة سيارة حمراء ضخمة ، وبدأ جسمها الثعالبني المنساب دليلاً أكيداً على سرعتها غير المحدودة. وعبست مادلين والتيار الناجم عن مرور السيارة يكتنفها كموجة طويلة من أمواج المحيط ولم تكد تستقيم حتى اضطرت إلى تشغيل فراملها بكل ما تملك من جهد في الوقت الذي بدا فيه

ذيل السيارة يتدفع بعنف سريع نحوها. كان السائق قد توقف بغتة بسيارته. وكان مصباحها المزدوجان يشعان كنارة وبضئتان الطريق حتى في وضوح النهار.

كانت مادلين مفرطة القرب. فوضعت قدميها على الأرض لتجرب الوقوف، ولكن الدراجة البخارية كانت تنزلق، وفي الثانية التالية ارتطمت بها، لم تكن خبطة شديدة، فقد وفرت عليها فراملها ذلك، ولكن الدراجة البخارية انقلبت، واستقرت مادلين على الأرض وهي تشعر بالحفاقة.

وبينما كانت تحاول الوقوف امتدت يداها قويتان وساعدتها، يرافقهها صوت يبدو كالثلج المنسحق ، يتساءل :

«ماذا تظنين أنك تفعلين؟»

اتسعت عينا مادلين وحدثت في الرجل الذي يواجهها غاضبة . هل هو في الحقيقة يلومها ؟ عجباً ، إنه هو المثلوم !

واصل كلامه بلا تردد ، ولمجته تبدو غير ودية :

«هنا طريق عام ، وليس ملعب أطفال.»

ثم أضاف مكملاً :

«يجب أن تفكري مقدماً ، أو تبقي بعيداً عن الطريق.»

ابتدته مادلين في سخطه

«انتظر لحظة، إنها غلطتك أنت بسبب وقوفك بهذه السرعة البالغة.»

قالت ذلك بنضب بينما كانت غيناه الساخرتان تنفرسانها. وتساءلت مادلين من أي جنسية يكون ؟ فقد كانت هناك لكنة في صوته، ضعيفة لكن لا تخفيها الأذن، ليست انكليزية بالطبع. ثم قالت :

«هذا الطريق لم يجر إنشاؤه لسباق السيارات. وعادة ما يبدي سائقو السيارات مقاصدهم بإشارات، تكون بمثابة تحذيرات مسبقة لمن يتبعهم في الطريق.»

قاطعها قائلاً :

«أدرك ذلك، حسناً، أعترف بأنني توقفت فجأة، لكنني لو لم أفعل لحدث ما هو أشد خطورة، وإذا سرت إلى مقدمة السيارة، فسترين بنفسك.»

مشت مادلين ببطء بعد أن اعتذرت قائمتها، وإن كانت تشعر بهزة بسيطة،

ولفت حول الوحش الآخر، ثم توقفت ودفعت يديها في جيبي سترتها. وكانت هناك ثلاث سيارات متصادمة في وسط الطريق، وكان من الواضح أن إحداها ارتطمت بالسيارتين الآخرين. وبينما كانت تقف هناك، كانت إحدى سيارات الشرطة تأتي بمجلة الصوت عبر الطريق من أوتريري، ولكن لم يكن هناك فيها يبدو من أصيب إصابة خطيرة لحسن الحظ.

قال رفيقها، وهو يبدو مسرورا الآن :

«حسناً؟ هل هذا يقنعك بأن دوافعي كانت معقولة؟»

هزت مادلين كتفيها، وقالت :

بالطبع، معذرة لأنني قفزت إلى النتائج، ولكن الدراجة البخارية ليس لها في الواقع قوة فرامل سيارة مثل هذه.

قالت ذلك وهي تشير نحو السيارة.

انحنى الرجل برأسه، ثم قال متأخراً قليلاً:

«هل أصبت؟»

لم تستطع مادلين أن تكتم ابتسامته، وقالت وهي تهز رأسها:

«لا، أشكرك، فإنني لا أزال قطعة واحدة! خير لك أن تفحص سيارتك. فالأرجح أن تكون في حاجة إلى إصلاح.»

ابتسم كذلك بشيء من السخرية، ووجدت مادلين نفسها تفكر كم هو جذاب. كان طويلاً ذا منكين عريضين يستدقان إلى ردفين نحيلين. وكان أسمر البشرة بفعل الشمس، وكانت عيناه زرقاوين غامقتين. وشعره أسود فاحماً، وهذا ما جعل مادلين تفكر في أنه ربما يكون إسبانياً أو إيطالياً. وكان يتحرك برشاقة وسهولة، وكان سلوكه المتراخي، يخفي وراءه فيها يبدو حيوية مكبوتة. وكانت حياكة بذلته خالية من العيوب، حاكنتها كما هو واضح يد صانع ماهر. وكانت لكنته الضئيلة وقمكه المتنازع من الانكليزية يشيران فيها يبدو إلى أنه تلقى تعليماً باهظ التكاليف. تساءلت من يكون، فقد كانت تعرف بمجرد النظر معظم ذوي الثراء في أوتريري. ولكن هذا الرجل غريب.

قال وكأنه يدرك خواطرها :

«إنني مرتبط بمصنع شريدان، ولهذا فلا أكاد أعتقد أننا يجب أن نشغل أنفسنا

بإصلاح سيارتي وهي لم تتأثر كثيراً، كما تريد.»

كان شريدان مصنع السيارات الذي يقع على الطريق مؤسسة إيطالية أمريكية، وأول مشروع مشترك من نوعه للإيطاليين والأمريكيين في انكلترا. وكان هذا يفسر لكنته أيضاً فيما يبدو من الواضح أنه ينحدر من أصل إيطالي، ولكنه قضى أعواماً كثيرة في الولايات المتحدة على الأرجح.

«هذا حسن إذا.»

قالت مادلين ذلك وهي تتعني لترفع دراجتها البخارية وتلتقط حقبيتها، التي كانت لحسن الحظ مغلقة. ولكن الرجل حال بينها وبين ذلك، ورفع الدراجة البخارية بلا جهد وتفحصها بعين خيرة. وقال :

«دراجتك البخارية تبدو سليمة، وإذا حدث فيها شيء، فما عليك إلا أن تحدثنا تليفونياً، وسأعمل على إصلاحها.»

واعطاها الرقم.

شكرته مادلين، وهي تفكر الآن كم تبدو مشعنة الشعر مغضنة الملابس. وبينما كان يسلمها الدراجة البخارية، كانت تدرك تماماً لغة عينيه وهما تطريباتها بشكل ساخر، وشعرت بوجنتيها تتوهجان من فرط الحرج.

قالت مثلثمة:

«أشـ... كرك...»

ثم دفعت بقدمها أداة التشغيل. وارتاحت لأنها عملت من أول مرة. وقالت وهي تجلس عليها:

«وداعاً...»

«إلى اللقاء يا؟ مس... مس؟»

قال ذلك وابتسم وهو ينتظر إجابتها.

قالت تصحجه :

«إن الاسم هو مسز سكوت.»

ثم انطلقت وهي تبتسم ابتسامة يسيرة، وتعني عينيه وهما ترقبانهما إذ تنطلق على الطريق، وقمت وهي تفعل ذلك ألا ترتكب أخطاء أخرى.

وخلال ثوان كان يمر مسرعاً بجوارها وهو يرفع يده لاشعارها بوجوده، فلم

النساء لابد فُكرن فيه على النحو نفسه. وبالنسبة الى دخله فيبدو أنه إنسان قادر - ومع ذلك فلا يستطيع الاستفادة من هذه القدرة ، بعكس النساء الكليلات أو الكنبيات ، فإن صالون التجميل ، ومصفف الشعر ، وجراح التجميل يمكنهم أن يعالجوا ذلك. أما هو فمن خلال سفرته التي تلوح معالمها حول عينيه وقمعه ، يبدو ضجراً بحياته ومدركاً في الوقت نفسه لجاذبيته.

لوت مادلين تسهات وجهها وهي تنطلق إلى نفسها في المرأة ، وقد سرتها خواطرها. يا للنساء! إنها تتصرف كطفلة لمجرد أنها قابلت رجلاً كان بلا جدال من خارج دائرتها! وما لبثت أن دست ذراعيها في سترة منزلية ، وبينما كانت تعقد أزرارها ، نحت عن ذهنها كل خواطرها عن الرجل... معها كان شعورها ، فإن ديانا كانت وستظل دائماً موضع اعتبارها الأول ، مسكنة ديانا... إنها لم تترأ في الحقيقة ، رغم كل شيء ، من صدمة فقدان جو عندما كانت بعد في الساعة من عمرها.

وبينما هي تخرج من غرفة النوم ، سمعت صوت مفتاح يدار في قفل الباب مبنياً بوصول ابنتها ، واندفعت ديانا بمرح وابتهاج إلى الداخل وهي تبدو تعجلاً كأنها الطبيعة الأحدث من مادلين ، فيها عدا أن شعرها كان بنياً غامقاً. كانت ديانا في السادسة عشرة ، تدرس في الكلية التجارية في أوتربري . وكانت كثيراً ما تعود إلى البيت متأخرة ، أن الكلية كانت تجري تمارين على المسرحية التي تعرض في نهاية الفترة الدراسية ، وكانت ديانا تمثل فيها دوراً رئيسياً.

لم تكن ديانا في طول مادلين ، وكانت تترك شعرها طويلاً مستديلاً وفق الموضة. وكانت ترتدي سترة رمادية غامقة ، وتهز في يدها حقيبة من التارتان ، القماش الصوفي المربع.

قالت تحسني مادلين ، وهي تطوح بحقيبتها على أحد المقاعد ، وأهلاً يا أمي... أليس الجو بارداً الليلة؟ إنني أعجدها أومأت مادلين برأسها ، وقالت موافقة.

نعم ، لا يشبه جو الربيع كثيراً ، هل كانت التمارين جيدة؟ قالت ديانا بلا اكتراث :

«إلى حد ما ، إن الأنسة هوكس تحاول دائماً أن تدير العرض وكأنه مهرجان عسكري ، ولكن فيما عدا ذلك كان كل شيء على مايرام ، ويبدو أنه صاحب...»

صحكت مادلين في خفوت ، وقالت :

«أنا أعتقد أن العرض سيكون ممتازاً لأعليك ، سينتهي الأمر قريباً ، الفترة الدراسية تنتهي في ثلاثة أسابيع ، أليس كذلك؟»

«بلى والحمد لله ، وسيكون أماناً عندئذ أسبوعان كاملان لا تفعل فيها شيئاً ، سيكون هذا أمراً رائعاً».

ابتنست مادلين ودخلت المطبخ ، وبينما كانت تعد البقول وتضع قطع اللحم تحت الشواية قررت ألا تقول لديانا شيئاً حول سقوطها عن الدراجة البخارية ، فلم يحدث ضرر لها بأية حال ، هذا إلى أن ديانا كثيراً ما تقول إنه يجب على مادلين أن تستخدم الأتوبيس في ساعات ذروة المرور ، وكانت ديانا تبدو أحياناً مستأثرة بوالدتها قليلاً ، ولعل ذلك يرجع إلى أنها كانت قريبتها الوحيدة. ولم تكن مادلين تريد أن تسبب لها مزيداً من القلق.

تناولا طعام العشاء في غرفة الجلوس ، وكان أحد أركانها تم تحويله إلى خلوقة لتناول الطعام بإضافة ستار يحجب المائدة عن الرؤية. أعدت ديانا المائدة بينما كانت مادلين تضع الوجبة في الأطباق ، وجلسا معا بعد ذلك ، ترقيان التليفزيون في كسل بينما تناولت مادلين سيكارة مع قهوتها.

تساءلت ديانا وهي تمسك في كسل :

«هل أغسل الأطباق؟ هل يأتي إلينا عمي أدريان الليلة؟»

«أعتقد أن أدريان سيأتي ، وأكون شاكرة إذا قمت بغسل الأطباق ، فسأقوم بتغيير ملابسك إلى شيء مناسب أكثر».

ابتنست ديانا ونهضت على قدميها ، ونظرت إليها مادلين ، وتساءلت في

تردد :

«هل... أنت خارجة الليلة؟»

«نعم ، طلب مني جيف الذهاب إلى نادي السبعينات».

أومأت مادلين برأسها :

«أوه...»

تلبث أن شعرت بنفسها تسترخي مرة أخرى.

وعندما وصلت إلى وسط أوتربري انعطفت يمينا عند إشارة المرور صوب هاينوك. وكانت هاينوك إحدى ضواحي أوتربري. وقد قام فيها عدد كبير من المساكن الجديدة، بما فيها مجمع الشقق الذي كانت تقيم فيه مادلين مع ابنتها ديانا. وكانت الشقق في إيفنود غاردنز تطل على نهر أوتر، وشعرت مادلين بغمرة سرور عندما وصلت إلى بيتها. كانت شقة لطيفة كما كانت أوتربري نفسها بلدة هيجة.

كانت الشقة في الطابق الأول. وبينما كانت تفتح الباب وتدلف إلى المدخل الصغير، نادى:

«ديانا ... هل أنت في البيت؟»

لم يأتها رد فأغلقت الباب وخلعت سترتها. وكانت غرفة الجلوس مفتوحة على المدخل، وهي غرفة كبيرة ذات جدران ملساء مطلية بالغراء زيتتها مادلين بعدة لوحات معدنية. وكانت سجادة الحائط، التي أنفقت فيها مادلين كثيراً من مداخراتها، ذات لون بالقوي أزرق... وكانت التدفئة كلها كهربائية، للأسف، لأن مادلين كانت تفضل نيران المدفأة المكشوفة في غرفة واحدة على الأقل. وهنا أدارت مادلين سهام تشغيل شبكة التدفئة لأنه بالرغم من أن الغرفة كانت دافئة بالمقارنة مع الهواء البارد في الخارج، إلا أن دفئها لم يكن مريحاً. وكان جو الغرفة أليفاً، وثمة خزانة للصيني تضم قطعاً قليلة من الصيني والزجاج الممتاز أما باقي المكان فكان مملوءاً برفوف الكتب الحافلة بدورها بالروايات، وجهاز تليفزيون وجهاز موسيقى يخص ديانا. كان موضوعاً على منضدة في فجوة في الجدار وبجوارها مجموعة من اسطوانات الموسيقى الحديثة.

أشعلت مادلين سيكارة وأدارت التليفزيون. كانت قد تسوقت في وقت الغداء، وجلبت بعضاً من قطع اللحم التي اشترتها للعشاء ولايستغرق طهيها وقتاً طويلاً. وحملت حقيبة التسوق ومرت بها إلى المطبخ الذي كان مفتوحاً على غرفة الجلوس، وكان صغيراً جداً. وأخرجت الطعام ووضعت الغلاية على النار. ثم عادت إلى غرفة الجلوس. كان الوقت يقارب السادسة، لهذا لم يكن لديانا أن تغيب طويلاً.

دخلت غرفة النوم التي كانت تتقاسمها مع ديانا. لم يكن هناك إلا غرفة نوم واحدة بحمام صغير وخزانة ملاصقة، وكانت الشقق مخصصة في الحقيقة لشخص واحد، لأن الشقة التي يوجد فيها غرفتان للنوم يزيد إيجارها عن عشرة جنيهات في الأسبوع. كان على مادلين أن تقنع بالشقة التي فيها غرفة نوم واحدة. ولم تكن هي لتعجب بهذا ولكن ديانا كانت تقترب الآن من سن يجعلها تعترض على ألا تكون لها غرفة نوم خاصة. ومع ذلك فعندما وصلا إلى أوتربري بعد وفاة جو، كانت مادلين تشعر بالشكر والحمد إذ أصبح لها مكان يخصها.

خلعت رداءها الجريسيه ودخلت الحمام لتغتسل. وبينما كانت تفعل ذلك وجدت نفسها تتساءل عما ظنه الرجل في السيارة عنها في الحقيقة. وجدته جذاباً إلى حد كبير، ولكن كان من الممكن أن تجده كذلك أية امرأة. وتساءلت عن عمره وبدأ لها أنه في أوائل الثلاثينات، ولما كانت هي في الثالثة والثلاثين، فربما كان هو كذلك في نحو سنهما على الأرجح.

وبينما كانت تمشط شعرها، الذي تهدل على كتفها عندما كانت تحمل العدة الفرنسية، تساءلت ما يكون ظنه عن سنّها. كانت تعلم أنها لا تبدو بسنّها الحقيقية، وكان أدريان سنكليس يقول لها باستمرار إنها تبدو كأخت ديانا أكثر منها أمها، ولكن أدريان كان يريد الزواج منها وكانت تلك طريفته. كانت ديانا تتذمر أحياناً أيضاً، من أن مادلين ترتدي ملابس لا تتفق مع مركزها كسكرتيرة للناظر، وكأرملة محترمة. ولكن ديانا كانت عتيقة التفكير في بعض الأمور، ولعل ذلك يرجع إلى تأثير جو إلى حد كبير.

وقررت بحجة أن عينها لها أفضل ملاحظتها. كانتا رماديتين تنحوان إلى الاخضرار، تطل منهما أضواء مصفرة، وكان شعرها في نعومة الحرير وفي لون العنبر الكثيف. وكانت طويلة، مفرطة الطول على ماتعتقد ذاتياً، وإن كانت ممشوقة القوام بشكل لطيف على الأقل، ولم تكن شديدة النحول بارزة العظام. وكانت ترى أنها في شكلها العام أنثى متوسطة حسنة الطلعة، ولكن ليست مميزة بأي حال.

أما الرجل ... وهنا تنهدت، فهو مميز في كل شيء. وشعرت بيقين أن عشرات

«هل ثمانين؟»

بللت مادلين شفيتها بإسائها. وقالت :

«لا لا ، ولماذا أسألك؟»

«لأسبب. ولكنني لاحظت أنك لا تتحسسين بشأن خروجي معه.»

ابتسمت مادلين نصف ابتسامة. وقالت :

«إنني أسفة يا حبيبتي ، لابد من ذهابك بالطبع.»

هزت ديانا كتفها. وقالت بخفة :

«حسناً ، إنه شيء أفعله والسلام.»

ابتسمت مادلين بسخريّة. وقالت :

«نعم. وأدريان سيأتي بعد ذلك على الأرجح. قال إن عليه أن يقوم بعملية

تقدير الدرجات ، ولكنني أظن أنه سيكون لديه متسع من الوقت للحضور.»

غمغمت ديانا في مكرك :

«إنه يجد الوقت دائماً من أجلك.»

ضغطت مادلين على شفيتها :

«نعم ، قد يكون الأمر كذلك. ولكن هذا لا يعني شيئاً يا ديانا ، لا يعني شيئاً على الإطلاق.»

هزت ديانا كتفها بأسف. وبدأت تحمل الأطباق إلى المطبخ ، وأطفأت

مادلين سيكارتها في منفضة السكاكر وخطت إلى غرفة النوم. كانت قد بدأت

تضيق بتلميحات ديانا عنها وعن أدريان. حقيقة أنها كانت تلميحاً تقوم

على الواقع ، ولكن مادلين لم تكن تساورها الرغبة في تحويلها إلى حقيقة.

وبينما كانت ترتدي بنطلونهاً قصفاً أزرق غامقاً ، وتضع فوقه بلوزة من

الحرير ، وجدت نفسها تسمى ، وليس لأول مرة ، أن يكون جو حياً. كانت

ديانا تكبر الآن وتصبح ذات مسؤولية كبيرة في نواح كثيرة. كذلك كانت تحب

جو وكان جو مدتهاً بها. فقد ظل بلا زواج سنوات كثيرة قبل أن يتزوج

مادلين ، ثم وجد ديانا طفلة لا يمكن مقاومة حبها على الإطلاق ، وتساءلت

مادلين الآن هل كان زواجها من جو هو الذي عجل بحالته؟ فمن المحقق

أن الزواج أثقله بمزيد من المسؤوليات. وأنه عمل بجهد كبير في السنوات التي

أعقبت زواجها. ولكن مرضه لم يكن له علاج ، وقال لها الأطباء كثيراً إنها

جعلت آخر سنوات عمره سنوات سعيدة.

قررت أن تترك شعرها منسدلاً ، وخرجت من غرفة النوم تبدو في جاذبية

الشباب. وكانت ديانا تهذب ما كياها بيد رشيفة. وكانت تضع مجرد ظلال

العيون وأحمر الشفاه. ولم تكن بشرتها الزيتونية تحتاج إلى مزيد من وسائل

التجميل. ألقت بنظرة انتقادية على أمها من فوق كتفها وقالت متسائلة بإشارة

من يدها :

«هل يوافق عمي أديان على ارتداء البنطلونات الفضفاضة؟»

بدت مادلين مسرورة ، وردت بخفة :

«لأؤكد أرى كيف يمكن أن تهمة هذه المسألة. أنا التي أرتديها وليس العم

أدريان.»

«أعرف ذلك ، ولكن بصراحة يا أمي ، لعلك ستزوجه يوماً ، وعليك أن ترتدي

من الملابس ما يتفق مع مركزك.»

«يا عزيزتي ديانا لست أنوي الزواج من العم أدريان ، وقلت له ذلك ،

وقلته لك أيضاً ، مئات المرات. عجباً ، إنني في الثالثة والثلاثين ولست في

الثالثة والخمسين ، ورغم أنني موقنة أنها تبدو سناً كبيرة بالنسبة إليك ، لكنني لا

أنوي أن أوي إلى الكرسي الهزاز بعداً»

قطبت ديانا جبينها :

«إن عمي أدريان ليس أكبر سناً من أبي لو أنه....»

ثم توقفت .

«أوه يا عزيزتي أنا أعرف ذلك ، ولكن هذا كان أمراً مختلفاً.»

«كيف؟»

تطلعت مادلين إلى ساعتها ، وقالت :

«ألم يحين الوقت لذهابك؟»

هزت ابتها كتفها ، وقالت :

«أظن ذلك ، حسناً ، أنت وشأنك....»

ثم جذبت سترتها المصنوعة من النوفيل وقالت :

«سأذهب إذا».

«حسنًا يا حبيبتي اعطني بنفسك».

قيلت ديانا وجنة أمها وانطلقت خارجة من الشقة وهي تدور حول نفسها. ودخلت مادلين المطبخ. كانت دلائل الغسل السريع من جانب ديانا للأطباق واضحة على الأرض التي تكاد تسبح في الماء. وكانت بمسحة الأطباق مشبعة بالماء.

عصرت مادلين المسحة. وتناولت المسحة الكبيرة وامتنعت بها الماء عن الأرض. ومسحت الأرضية الخشب فغدت نظيفة. ثم وضعت الأطباق التي كانت ديانا قد تركتها على المنضدة. في أماكنها. وعادت إلى غرفة الجلوس. وما كادت تستقر أمام التليفزيون حتى جلجل جرس الباب فنهضت في كسل ومضت تطرق الأرض بخفوت إلى الباب. وإذا فتحته. وجدت أدريان متكبر ينتظر السباح له بالدخول.

وكان أدريان نحيلًا طويلًا في أوائل الخمسينات. يكبر مادلين بعشرين عامًا. وأعزب. ووجد مادلين فائدة ومرغوبة تمامًا. وتحركت كل عواطفه بعنف نحو مادلين بسبب افتقارها الظاهر إلى الاهتمام الرومانسي به. وبصراحة. كانت مادلين تتسائل عما يجتذب الرجال الأكبر سنًا إليها. لقد وجدت أدريان مثيلاً من الناحية العقلية. ولكنه بارد من الناحية العاطفية. ولم تكن الزيجات لتقوم على العقل وحده. ولم يكن ليمضي في اتجاه آخر غير هذا الاتجاه معها. قالت وهي تبتسم الآن:

«تفضل يا أدريان ألا يزال الجو باردًا».

قال أدريان. وهو يدخل ويتخفف من معطفه:

«أبرد... هذه غرفة دافئة ومريحة يا مادلين. إنني أشعر دائيًا كأنني في بيتي هنا».

«حسنًا. أنا مسرورة لذلك».

أغلقت مادلين الباب وأخذت عنه معطفه قبل أن تتبعه عبر الغرفة وسألته أن تعد له بعض الشراب فوافق. وجلس على الأريكة أمام التليفزيون في الموضع نفسه حيث كانت تجلس مادلين قبل وصوله. وانضمت إليه بعد أن سكبت الشراب.

كانت تستمتع بصحبة أدريان. ودعاباته الجاهرة. وكانت مسرورة لأنه لم يبدل أي محاولة قوية لجعل العلاقات بينهما تتحول إلى أكثر من ذلك. كان كثيرًا ما يطرق موضوع الزواج. ولكن مادلين حاولت أن توضح له من البداية أنه لا يمكن أن يكون بينهما شيء أكثر من الصداقة.

وكان أدريان يأتي إلى الشقة كلما استطاع ذلك. سواء كانت ديانا موجودة أم لا. وكان يحب ديانا. وكانت مولعة به. وهي تخاطبه بالعم أدريان منذ كانت في الحادية عشرة من عمرها. ولم يجد سبباً يدعوها إلى أن تغير ذلك الآن.

وكان يمتلك منزلًا في أوتربري. تديره مديرة ممتازة. وكان المنزل يقع قرب مدرسة أوتربري التي كان ناظرها. ومع أن المنزل كان كبيرًا وكثيرًا بالنسبة إلى رجل يعيش وحده. فقد كان يحبه. وجعله مليئًا بنخبة من التحف الفنية الكفيلة بأن تجهز متحفًا. وكانت مادلين تقول أحيانًا وهي متأسلة إنه لو تزوج يومًا ما وأنجب أطفالًا ييرون في البيت لأصبح في خوف دائم على مجموعته.

قال أدريان بطريقة عرضية:

موقع حادث على طريق أوتربري اليوم. تصادمت سيارتان ولوري. ونشر الخبر في الطبعة المتأخرة من الصحيفة».

«أوه... أكان هناك حادث حقًا؟»

كنت مادلين معرفتها بالحادث. فلم تكن تنوي أن تحدث أدريان. فضلًا عن ديانا. بالحادث الشخصي الذي تعرضت له لأن أدريان مثل ديانا. يعيب عليها استخدامها الدراجة البخارية على الطريق المكتظة. يفضل استخدام وسائل النقل العامة في تلك الأسابيع عندما لا يستطيع توصيلها إلى المنزل.

«نعم. بعض الناس يتحركون بسرعة لاتناسب السلامة. ومعظم هذه الصدمات يمكن تجنبها بقليل من الثروي».

«أوه... إنني أوافقك».

قالت مادلين ذلك بشيء من التوتر. وهي تجلس بجواره. وتأمل ألا يفتحها وجهها. وأضافت:

«المرور المقبل من مصنع شريدان يتحرك بسرعة بالغة»
 «بالفعل، وسيكون من دواعي سروري إتمام بناء البيوت الواقعة خلف المصنع،
 فبذلك لن يضطر هؤلاء المفسدون للقدوم إلى المدينة ليتخذوا الطريق منها إلى
 لندن. إن معظم السيارات تحمل المنطقة الواقعة خارج المدرسة بمثابة حلبة سباق.
 وإنني لأشعر بالامتنان لأن جموعنا من التلاميذ يخرجون من المدرسة قبلهم. هل
 تتخيلين ماذا يكون عليه الموقف لو خرج من أبوابنا حشد من راكبي الدراجات
 وحاولوا الاندماج مع هذا الحشد الآخر؟ فلنكن السهء في عونهم»
 قبلت مادلين سيكارة عرضها عليها، وقالت: بعد أن بدأ كلاهما يدخل:
 «هل ذهبت يوماً إلى مصنع شريدان؟»

«كلا. لم أذهب إليه منذ افتتاحه. وذهبت يوماً إلى موقعه خلال المراحل الأولى
 للبناء، إنه مكان هائل، ويبدو أن طاقة تشغيله عندما تكتمل تماماً ستستوعب
 نحو خمسة آلاف رجل أحضروا عمالاً عدة مهيين من إيطاليا بالطبع، ومن
 مصنعهم قرب ديترويت. وسمعت أن نيكولاس فينال نفسه جاء من روما
 خصيصاً ليظمن على أن كل شيء يجري على مايرام. وهو هنا بالطبع في زيارة
 فقط، فهو الرئيس الكبير ولعله تعلمين أن والده هو الذي أسس هذا العمل. أما
 الرجل الذي يدير هذا الفرع فيدعى ماسترسون، وهو من أمريكا على ماأعتقد،
 أحضر أسرته معه واستأجروا المنزل الذي يقع قرب هاينوك، وأعتقد أن اسمه
 انقلسايد».

«أجل....إنني أعرف هذا المكان ياأدريان، إنه ضخم، ألم يكن ملك أحد
 الأرستقراطيين المفلسين في وقت ما؟»

قال أدريان، وهو يضحك في خفوت:
 «نعم، كان اللورد أوتريوري المسن نفسه يعيش هناك منذ سنوات. تخيلي أن ينزل
 الأمر يكيون في هذا البيت الفخم المهييب»
 ضحكت مادلين، وقالت:

«لا بد أن يكون شيئاً جميلاً أن يتحرر المرء من قلق المال»
 «ياعزيزتي مادلين....إن بوسعك أن تتحرري أيضاً من قلق المال إذا سمحت
 لي فقط بأن أتولى رعايتك».

«أعرف ذلك ياأدريان، وأقدره. لكنني لاأستطيع أن أرى نفسي زوجة ناظر
 توزع الشاي والمجاملات على أولياء أمور الأطفال. أخشى ألا أكون من هذا
 الطراز»

تهتد أدريان وقال:

«هراء يا مادلين، في وسعك أن تتلاءمي بسهولة، وأقول جاداً إن ديانا
 ستوافق على زواجك مني، فهي بالنسبة إلى بمثابة الابنة»
 «أعرف ذلك ياأدريان، إنها مناصرة كبيرة لقضيتك، ولكن الأمر ببساطة هو...
 إنني أتمتع بحريتي، وأهم من ذلك، أننا لانتبادل الحب»
 «وهل كنت تحبين جو؟»

قطب أدريان جبينه عندما لم تحب مادلين، واستطرد قائلاً:
 «هذا إلى جانب أنني أحبك يا مادلين، إن الحب للشباب، ونحن كبار
 ناضجون، ولنا أحداثاً دون العشرين تنوق توقاً إلى القمر ألا تودين أحياناً أن
 تشرخسي، وأن تضعني قدميك إلى أعلى بدلاً من الاندفاع إلى البيت في
 الأمسيات؟»

تهتدت مادلين.... كل ما قاله أدريان صحيح. ستكون ديانا بحسرة
 إذا تزوجا، ستكون متحمسة بالفعل، فهي تحب أدريان وتحترمه، وسوف
 تستمتع بالتميز الاجتماعي الذي ستكون فيه عندما تصبح ابنة زوجة الناظر.
 كذلك كانت مادلين تعرف كم سيكون الأمر باعثاً على البهجة إذا أصبح لها
 وقت فراغ كبير تقرأ فيه كل الكتب التي تود قراءتها، وتستكشف كل المتاحف
 ومعارض الفن التي تستمتع بزيارتها. بل وقد يكون لها أسرة كبيرة أيضاً.

هنا انتصبت مادلين في جفول، لا يمكن أن تقع نفسها أبداً مرة أخرى بحياة
 مثل هذه. لم تكن في قرارها شخصاً مرتزقاً، وكانت تفرعها فكرة الزواج من أحد
 لمجرد المنافع المادية التي يمكن الاستمتاع بها، لا تستطيع هي بالذات أن تفعل
 ذلك. لقد استطاعت هي وديانا أن يديرا أمورهما حتى الآن. وخلال عامين،
 تكون ديانا قد عملت واستطاعت أن تزود نفسها بالكماليات القليلة التي لم
 تستطيع مادلين أن تتحمل نفقاتها دائماً.

قالت وهي تتهدد مرة أخرى:

«أنا أسفة بأفريان . لا أستطيع أن أفعل ذلك . وعلى قدر إعجابي بك واحترامي لك . أستطيع أن أرى كيف يكون في وسعنا أن نخفي حياتنا معاً . أنت مصبوب في قلوبك على نحو يتغير معه التغيير بآية حال . وسوف شكره أن تكون في البيت فتاة دون العشرين . تفسد مجموعتك الشجيرة وتوقفك في كل الأوقات على صوت أحدث مجموعة من الموسيقى الحديثة . أنت لا تتصور ماذا سيكون عليه الوضع .»

«هراء»

قال أفريان ذلك مرة أخرى . ثم تنهد وهو يرى علامات المياعة في وجهها . وأضاف :

«حسناً . فلتنسى ذلك . أين ديانا الليلة في أية حال ؟»

«ذهبت إلى نادي السبعينات مع جيفري إيرسون . هل تعرفه ؟»
قال أفريان في تأمل .

«أعرفه . أخوه في السنة الأولى في مدرستي . ولكن جيفري يذهب إلى المدرسة الثانوية . أليس كذلك ؟»

«نعم . إنه في السابعة عشرة فقط . وقد أخذ دراسته العليا في شهادة التعليم العام . وينتظر الآن مكاناً له في الجامعة» .

«أه . . . نعم . إنني أذكر أن هيلرنتون كان يتحدث عنه في آخر مرة كنا نتناول فيها العشاء معاً . كان السيد هيلرنتون ناظر المدرسة الثانوية . وقال إن أمه مختلفة تماماً . وهو لا يكاد يصدق أن جيفري هو ابنها فهي سيدة فظة جداً على ما أعتقد» .

عضت مادلين شفتيها . وقالت :

«إن جيفري ولد وسيم . ذكي أيضاً كما تقول . ولكنني أتساءل أحياناً إذا كان مشهوراً قليلاً . على الأقل بعيداً عن المدرسة» .

قطب أفريان جبينه . وقال وهو يبدو متفكراً :

«نعم . ربما كان الأمر كذلك . هل يساورك القلق فيما يتعلق بتأثيره على ديانا ؟»
«نعم . إنني قلقة» .

«ولكن ديانا ليست سهلة القيادة» .

«قلت مادلين . وهي تتحرك في قلق» .

«أوه . إنني أعرف ذلك . ولكن المسألة أنها لا تزال صغيرة» .

هو أفريان كتفيه . وقال :

«إنهم يتسجن سكرًا هذه الأيام . وديانا فتاة عاقلة . وهي لن تتصرف بغيره . ونحن أبداً» .

نهضت مادلين وتساءلت :

«ألن تفعل ذلك حقاً ؟ ألن تفعل ذلك ؟»

ثم ابتسمت . وأضافت :

«لا . . . لا أظن» .

ابتسم أفريان . وقال :

«إنني أدرك شعورك . أنت وصية عليها . ولذلك تشعرين بمسؤولية مزدوجة لأنها بلا أب» .

«ماذا . . . ماذا يحصل والد جيفري ؟»

رد أفريان :

«إنه يعمل لحساب شركة من مقاولي سيارات النقل . وكما قلت من قبل . فمن الواضح أن جيفري هو الذي خرج على خط العائلة» .

كان نادي السبعينات يقع فوق مقهى بالاسم نفسه في شارع هلي ستريت . وأوتريوري . وكان كل أعضائه شباباً دون العشرين من المدارس المحلية أو الكليات الفنية . وكانت الموسيقى تأتي من صندوق للموسيقى قدمه صاحب المقهى مجاناً .

وفي مساء الجمعة ذاك كان المقهى غاصاً بصغار الشباب . كلهم يلبسون ويدررون يجنون على ألحان الموسيقى الصاخبة والمشيخة التي تصدر عن الصندوق . وكان هناك بار منخفض في أحد الأركان يقدم القهوة والكوكاكولا وكانت الأصواء خافتة رقيقة .

وكانت ديانا سكوت وجيفري إيرسون يرقصان معاً . وعندما انتهت الموسيقى سقطت ديانا على صدر صديقها ضاحكة . وصاحت :

«يا إلهي . إنني منهكة القوى . لنجلس قليلاً» .

أوسع لها جيفري في الابتسام . وأطبقت يدها حولها كأنها هي أسيرته .
وغمغم في رفق :
«أفضل أن أبقى هكذا»

أحمر وجه ديانا . كانت تعجب كثيراً بجيف . وكانت مسرورة لأن
علاقتها بدأت تدخل أخيراً فيما يبدو مرحلة أكثر جدية . ولم يكن لها صديق
منتظم من قبل . وأرادت أن تكون مثل سائر الفتيات اللواتي ينتقن أوقاتهن في
مناقشة محاسن شتى الفتيان .

إلا أنها خلصت نفسها وقادته وهي تمسك بيده إلى البار . حيث اتخذوا جلستهما
على مقعدين عالين . وطلب جيفري قدين من القهوة . وأخرج من جيبه علبة
سكاكر عرضها على ديانا فهزت رأسها وأشعل جيفري سكاكرته ووضع
العلبة في جيبه .

قال بفتور :

«كنت أظن أنك تنوين تجربة التدخين في وقت ما»

قالت ديانا . وهي تعض شفتيها .

«كنت أنوي ذلك... أنا أنوي ذلك»

قال ساخراً :

«إنك خائفة...»

فتصلبت كتفها وقالت :

«لا . لست خائفة . أعطني واحدة»

مز جيفري كتفيه وتناولها سكاكرة وأشعلها . وجذبت ديانا أنفاسها كما
كانت ترى سائر الناس يفعلون . ثم بدأت تسعل سعل مختلفة .
ابتسم جيف ابتسامة عريضة وربت على ظهرها . فارتعدت ديانا
وصاحت :

«أوه... إنها قلبية... لا أدرى كيف يمكنك...»

قال جيف :

«يجب أن تثابري . استمري . اسجني نفسك أجرة»

قالت ديانا يحسم :

«كلا... أشكرك...»

ثم ألقت السيكرة أرضاً وسحفتها بقدمها .

قال جيف باستياء :

«هلذا فعلت ؟ إن هذه السكاكر لا تنمو على الأشجار كما تعلمين»

قالت ديانا ساخرة :

«لا . إنها تنمو على النباتات»

يذا جيف غاضباً . وقال :

«شيء لطيف»

ثم مضى متسائلاً يبطه عبر ساحة الرقص .

ذهلت ديانا . لم تكن تعلم أيذا . بأن ينصرف عنها ويتركها . وكان قلبها يدق
بسرعة . وشعرت بأعياقها تبرد داخلها .

كانت تعلم أن سائر الفتيات في النادي يحسبنها على ارتباطها بجيفري
إيرسون . كان فتى شديد الجاذبية وكان في وسعه أن ينتقي من يشاء من
الفتيات . أما اختياره لها فكان يشير إلى حد كبير لأنه قبل شهرين فقط كان
يعاملها كطفلة . ومنذ التحقت بالكلية التجارية . كانت قد نمت كثيراً . ولم تكن
تدري كم هي جذابة بشعرها الحريري وعينيها الواسعتين . وعندما بدأ يواعدها .
ارتفعت مكانتها بين رفيقاتها . وكان من بواعث جاذبيته أنه كان الفتى المفضل
لدى الجميع في الوقت الحاضر .

بدأت الموسيقى تعزف من جديد . ورأته يقترب من فتاة نحيلة جميلة ويطلبها .
للمرئص على ما هو واضح . وشعرت ديانا بالאהانة والفضب . كيف يجرؤ على أن
يعاملها هكذا ؟ وخطر لها أن تعود إلى البيت . ولكنها كانت تعلم أنها لن تفعل
ذلك . بل ستنتظر لترى إن كان سيعود إليها . كان هذا أمراً مغيظاً . ولكنها لم
تستطع أن تنصرف عنه . وإذا كانت ستفعل فليس الآن .

طلبت قدحاً آخر من القهوة . وجلست ترشفه وهي مستغرقة في التفكير . إذا لم
يأت إليها بين الرقصات فستضطر للذهاب إلى المنزل . وكما سيكون هذا قبيحاً
بعد رقصتين أخريين بلغت أعياق اليأس . وعندئذ شعرت بأن أحداً ينظم
إليها . ولم تجرؤ على الالتفات فألقت إليه نظرة جانبية . وإرتاحت لأنه كان جيف .

كان وجهه جيف . يبدو نائبا عنها ، ولكنه قال :
«أتريدين الرقص ؟»

شعرت ديانا بيدها تتدبان ،
«أنا... حسناً... هل تريد أنت ؟»

هز كتفيه ورد ببرود :
«نعم ، إنني سأرقص»
«حسناً...»

قالت ذلك وهي تتراقص من فوق كرسيها العالي.

وكانت الموسيقى عندئذ بطيئة منملكة . وكان هناك مطرب من
الاسطوانات المعاصرة يغنى يا حدى أغاني الحب . وجنبا جيف بين ذراعيه
ووضع خده على خدها . وكانا يتحركان ببطء وذراعا كل منهما حول الآخر .
وشعرت ديانا بنفسها ترتجف ، فهمهم إليها .
«استرخي...»

فهمست إليه قائلة:
«إنني أسفة...»

وأدركت أنها تعتذر عن لائقي . ولكن كان هذا أفضل من عدم ميالاته .
تطلع جيف إليها وتساءل :
«هل أنت أسفة حقاً؟»

تجست ، وهي تبدو قلقة .
«ماذا انصرف عني ؟»

«لا أحب أن يعاملني أحد وكأنني أحمق»
«لكنني لم أكن... أوه يا جيف... أظن أنني انصرف بحفاقة في بعض الأحيان
ألا تستطيع أن تتسي ما حدث؟»

لانت عينا جيف :

«حسناً يا ديانا ، أظن أنني ملوم بالقدر نفسه لأنني تصرفت بسخط وعاملتك
بازدراء . هل جعلتك تشعرين بالغيرة ؟»

احمر وجه ديانا . وقالت بركة . وهي تيل على عنقه وتشعر بيديه غملاكانها إذ

تكتفان حولها.

«نعم ، لقد تجعت في هذا الاتجاه»

وعندما انتهت الموسيقى تطلع إلى ساعته ، وقال بهدوء :
«إنها التاسعة والنصف... فلنذهب... إذا»

أرمات برأسها وذهبت لتأتي بمعطفها ، وفي الخارج كان الهواء نقياً ولكنه شديد
البرودة . فانتطلقا مسرعين إلى محطة الأوتوبيس . كان جيف يسكن في الطرف
الآخر من أوتربري ، قرب المدرسة الثانوية في الواقع . ولكنه كان دائماً يوصل
ديانا إلى منزلها.

ونزلا من الأوتوبيس وسارا في الطريق المظلم صوب البناية الثانية حيث كان
يسكن آل سكوت . وقبل أن يصلا إلى البناية الثانية ، وبين البنايتين العاليتين ،
كانت هناك حديقة صغيرة للزينة بها أحواض زهور ومقاعد طويلة قائم بين
أشجار الورد والشجيرات الخنجية . وكانت مواعيد اللقاء القليلة الأخيرة بينهما
تنتهي إلى هذا المقعد ، حيث كان يودع أحدهما الآخر وداعاً طويلاً . ورغم أن
الجو كان بارداً سارا عبر الحديقة إلى المقعد ، ولكنها لم يجلسا في تلك الليلة . إذ
كان الجو قد أمطر خلال النهار ، وكان كل ماحولها مندى ، ولكن الشجيرات
كانت تكفل لها بعض العزلة والانعزاد.

قالت ديانا وهي تتطلع إلى جيف :
«أشكرك على توصيلي إلى المنزل»
«كان ذلك من نواعت سروري»

ثم جذبها إليه وعانقها... ورغم أنها بادته ذلك شعرت بنوع من الخطر يبدو
منها . كان في مكانه القوة لها وتساعد أنفاسه وتبادل التجاذب بينها نتيجة
المبارزة المثيرة التي حدثت... كل هذه حفرتها للتضارب أكثر على نحو لم تعهده
من قبل فإذا بها تسحب نفسها إلى الوراء فجأة ، يساورها الخذر والشغور بالصد
والنفور ، فتبلغ ويقفها بصعوبة.

عقد جيف أزرار معطفه بأصابع غير ثابتة ، وقال بصوت محكم منطو:
«ألا تدرين ماذا يمكن أن يفعل عناق مثل هذا الرجل ؟»
عضت ديانا شفتها وأطبقت قبضتها ، وتساءلت بعصبية:

«أريد منك فقط أن تذكرني أنك مجرد طفلة. وجيف لا يزال بالدرسة. وهو يخوي كما قلت لي أن يلتحق بالجامعة في الخريف. فليس من فائدة ترجي أن تتركها شيئاً يتم عن حماقة».

احتجت ديانا في غضب. وكانت تفت أن يحدثها أحد يتعال. وقالت: «لست أرى سبباً لديك يدعوك إلى أن تحدثني بهذه اللهجة. وفي أي حال أنا لم أتحدث بشيء. أليس كذلك؟»

«بلى. إنك لم تحدثني بشيء. ولكنك كنت تبدين غريبة ليلة أمس عندما عدت إلى المنزل».

شعرت ديانا بهواجسها لتتعبان من جديد. كان مما يبعث على الضيق أن تبدو شغالة على هذا النحو: «ليس ثمة سبب...»

ردت بذلك باقتضاب. وقلت إناء القهوة. وتساءلت: مادلين إذا كانت قد أفرطت في قلقها بشأن ديانا. فكما قال أديان إن الفتيات ينضجن مبكراً هذه الأيام. فقلت ذلك. لكن فحنت ذلك.

وبعد الفراغ من تناول الطعام تولت مادلين غسل الأطباق بينما ذهبت ديانا لتغير ملابسها. ثم أخرجت مادلين المكينة الكهربائية. إذ كانت تتولى تنظيف الشقة بعد ظهر كل سبت.

برزت ديانا وهي تبدو شابة نضرة في تنورة من التويد وكنتزة قصيرة مكنتزة. وكانت ترتدي «شرة» من القراء ذات كسرات لها قلنسوة من القراء نفسه. وكانت هذه الشرة أصلاً لمادلين. وكانت في لون العسل مع بطانة بنية غامقة. وهي مناسبة لبشرة ديانا الزيتونية مثلاً كانت مناسبة لبشرة مادلين. تطلمست ديانا إلى أمها في جزن واكتئاب وتساءلت وهي تشير إلى الشرة: «هل قانصين؟»

لوت مادلين نفسها وجهها. ولكن كانت هناك نظرة سرور في عينيها. وتساءلت متبسمة:

«هل هم إذا كنت أمانع ؟ كلا. استمري وشأنك. إنما على الأقل ستدقنك... وأرى أنك ترتدين حذاءك الطويل الجديد. إنني مسرورة لأنك اشتريت هذا

٢ - دعوة

اعتادت مادلين وديانا التسوق معاً صباح السبت. حيث تشتريان معظم الطعام المطلوب للأسبوع التالي. وتضعان السلع الدابلة للفساد في الثلاجة الصغيرة في المطبخ. وبينما كانتا تتناولان الغذاء قالت ديانا: «سأذهب بعد الظهر مع جيف إلى مباراة الركبي التي ستقام في المدرسة الثانوية. ثم نتناول الشاي في منزله ونذهب بعد ذلك إلى السينما».

وتساءلت مادلين وهي ترفع حاجبيها السوداوين: «حقاً؟ وهي مسر والدته بذلك؟»

ابتسمت ديانا وقالت:

«هل قابلت أسرته من قبل؟»

«كلا. ولكن هذا لا يهم».

هزت مادلين كتفها. وقالت:

«حسنًا. أفتى أن ينتهي كل شيء على ما يرام. هل هذا ينظر بعلاقة أكثر جدية في المستقبل؟ أمل ألا يكون الأمر كذلك. فأننا صغيران جداً كلاهما».

هتفت ديانا:

«أو. يا أمي...»

ثم حملت طبق حلواها إلى المطبخ.

وبينما كانت تعد القهوة. انضمت إليها والدتها وعلى وجهها علامات التفكير. قالت بهدوء:

الحذاء، رغم أنه غالي الثمن.
«حسناً، أود أن أبدو جميلة عندما أقابل والدي»
قالت مادلين في شك.

«نعم...»

ثم أردفت وهي تهز كتفيها:
«قمتي بوقتك»
«سأفعل... وداعاً».

وبعد أن ذهبت ديانا، انكبّت مادلين على العمل في شبه انتقام. لم تكن مولعة بعمل المنزل بوجه خاص، ولكن كان لا بد من أدائه، ولم تكن هي من النوع الذي يتجنبه.

وما كادت تغرغ حتى حل وقت تناول الشاي، فصنعت لنفسها وجبة صغيرة. كان أديان يصطحبها دائماً إلى الخارج للعشاء في أمسيات السبت، لذلك لم تكن تتناول وجبة كبيرة. كانا عادة يذهبان إلى فندق يقع خارج أوتريوري ويتناولن شيئاً من الشراب قبل الوجبة. وكانت مادلين تستمتع دائماً بهذا التغيير إذ لم تكن تخرج أبداً طوال الأسبوع.

غيرت ملابسها وأرتدت ثوباً من الجيرسيه بلون العنبر ومشطت شعرها وثبتته على وضع العصاة الفرنسية. وبينما كانت تضع ماكياجاً خفيفاً على وجهها خطر لها أن بشرتها على الأقل جيدة. كانت ناعمة خالية من التجاعيد، وكانت تدرك أنها تبدو أصغر من أعوامها الثلاثة والثلاثين. وبينما هي مسرورة بخواطرها، أدركت أن كل هذا التقد الذاتي إنما يرجع إلى الرجل في السيارة الحمراء. وهنا تساءلت مرة أخرى إذا كانت ستراه بعد ذلك.

وصل أديان في الساعة والنصف، وكان يرتدي حلة من جلد الغزال فيها بذلك أصفر سائاً ومميزاً، وابست مادلين وهي تسمح له بالدخول، وقالت وهي تطربه:

«إنك تبدو هذا المساء أنيقاً للغاية».

رفع أديان حاجبيه وقال:

«أشكرك، أنت تبدو أنيقة أيضاً».

ارتدت مادلين سترة مريجة وردت قاتلة في بهجة واقعية:
«أتوقع أن يكون الجو باعثاً على البهجة كالعادة».

قاد أديان سيارة روفر قديمة لكنها مريجة إلى حد ملحوظ. وكان دائماً يقول إنه سيضطر إلى شراء سيارة جديدة، ولكن مادلين كانت تعلم أن سيارته القديمة ستبقى معه سنوات عدة بعد. فقد كان يكره التغيير إذ يألف الاعتياد. وكان هذا هو السبب الذي جعلها تعلم أنه ليس في وسعها أبداً أن تتكرر جدياً في الزواج منه، إذا لم يكن ذلك إلا بسبب عاداته الخازمة.

كان فندق كراون يقع على مسافة ثلاثة أميال فقط من أوتريوري، على طريق غيلفورد. وكان يقدم الطعام والخدمة المناسبة أساساً للذين يريدون الابتعاد عن صخب المدن واندفاعها. كما كانت مطاوعه ذات كفاءة طيبة. وكان الطعام الذي يتولاه طاه فرنسي لذيذاً ومنوعاً في مذاقه ولذلك اشتهر بالخدمة الحسنة. وكانت مادلين تشعر وهي تتناول الطعام فيه بأنها خيرة ذواقة في اختيار أصنافه والحكم عليها.

وكان الطريق إلى الفندق يمر بمصنع شريدان، فشعرت بعينها تنجذبان إلى المكان وهي تمر عليه. وتساءلت أي مركز يحتله الرجل. لقد قال إنه يعمل بالمصنع، فربما يكون أحد المديرين. فرجل مثله يقود سيارة مثل سيارته، لا يمكن أن يكون من طبقة العاملين في الورشة. هذا إلى أن حلت كانت تنبه بتفصيل راق، حتى حل أديان لم تكن تناسيه على هذا النحو الجيد أوتيدو غالبية الثمن كهذه الحلة. ومع ذلك فأديان ناظر مدرسة، ولكن أديان كان يتوخى في شرائه الأشياء أن تدوم، وكانت غالباً ما تدوم.

كان الفندق مزدحماً، ولكن مادلينها كان يجري حجزها من أسبوع لأسبوع، وذلك بعد شيئاً مضموناً. فبعد وصول الإيطاليين والأمريكيين، بدت بلدة أوتريوري وما يكتنفها وكأنها تنصرف تدريجياً، وكان سكانها يتجهلون الحدود في كل مكان، وزجر أديان وقد اضطر إلى أن يشق طريقه إلى البار ليحضر شرايبها. وعاد يشق طريقه إلى جانبها وهي تقف قرب المدخل.

قال وهو يتخذ بجانبها وضعاً مريحاً:

«يا له من زحام. لقد أصبح المكان أشبه عيارة الركبي كل أسبوع. ولم يكن

تحدثت مادلين ، وحثتها أدريان على القبول ، وقال ملاطفاً وهو يستجيبها :
«أرجوك أن تقولي إنك ستحضرين يا مادلين»
«ولكن... ديانا...»

قال أدريان بحزم :

«قادرة تماماً على أن تعني بنفسها في أمسية واحدة» نعم يا هيدريغتون ،
ستحضر. هل أتى سيارتي لاصطحابك؟
قال وهو يلهث :

«نعم. سيكون هذا أفضل. ثم في وسعك بعد ذلك أن تذهب لاصطحاب السيدة
سكوت. والآن يجب أن أذهب وأدعكم تواصلان أمسيتهما بدون إزعاج»
ثم لمعت عيناها وهو يقول :

«أحكمي ضبطه يا سيدة سكوت»

وضحكت مادلين عندما لمحت الغضب في ملامح أدريان ، وانصرف
هيدريغتون ، وهو لا يزال يضحك في خفوت. وذهب أدريان في سخط :
«حذاً. لقد ذهب هذا الرجل إلى أبعد حد. ماذا يظن نفسه؟»

قالت مادلين في رقة ولطف :

«إنه رجل من ساحر. إنني معجبة به. كان يمزح فقط فلا تدع السخط يملكك
يا أدريان على لا شيء»

تنهد أدريان وابتم في نعم. وقال :

«أظن أنك على صواب كما أنت في العادة. إنه يجعلني أشعر دانياً بأنني أشبه
بتلميذ من تلاميذه»

ضحكت مادلين في مزح. وقالت في ابتهاج :

«تلميذ من... ألا نظن ذلك؟»

وبعد أن عادوا الخندق توجهوا بالسيارة إلى شقة مادلين. كانت الساعة مجرد
العاشرة مساءً. فدعته لتناول مزيد من القهوة. ولم تكن ديانا في الداخل عند
وصولها. ولكنها جاءت بعد ذلك مباشرة.

كانت وجنتاها محمرتين. ولم تكن مفعمة بأحلام اليقظة على نحو ما كانت في
الأمسية السابقة. وشعرت مادلين بارتياح. وإن كانت قد سلورتها بعض

المخاوف إزاء قسائها المكثفة. لم تكن قد عرفت كيف تعاملها في الأمسية
السابقة وكان من الواضح أنها لا تعرف كيف تعاملها الليلة كذلك. فقوت أن
يكون فعلها عفوية. وولفت أن تبدأ في القلق من جديد بعد هذه الأمسية
السارة التي تبعت على الاسترخاء.

وسأت ديانا. وهي تتطلع إلى أدريان :

«هل قضيت أمسية لطيفة؟»

غاص أدريان في الأريكة المريحة وقال :

«لطيفة جداً. أشكرك يا ديانا ، والآن تعالي أخبريني عن فتاك... هل وفر لك
وقتاً طيباً؟»

قالت ديانا في أدب. وهي تخلع السترة المصنوعة من الفراء. وتجلس بجوارها :
«نعم. أشكرك. تناولنا الشاي في مسكن والدته. ثم ذهبت إلى السينما. شاهدنا أحد
أفلام الغرب في سينما أوديون»
«هل كان قيباً جيداً؟»

جعدت ديانا أنفها. وقالت مسلمة :

«كان لا بأس به... إننا لا نرى دائماً أجزاء كثيرة من الفيلم»

قالت ذلك وهي تراقب في تراخ تعبير الصدمة على وجه أدريان :
لم يحب ظنها. إذ رفع أدريان حاجبيه استنكاراً. كانت كلماتها الصريحة قد
صدمة. وكان من المحقق أن هذه الشيطانة الصغيرة. ابنة مادلين ، تتخير
كانت مادلين على صواب.

وتساءلت مادلين ، وهي قادمة من المطبخ تحمل صينية من القهوة :

«كيف كان الشاي؟ هل سارت الأمور سيراً حسناً بينك وبين والدته؟»

هزت ديانا كتفيها التحيلتين :

«أظن ذلك. أبدت والدته بعض الملاحظات السائكة عن إهماله الدراسة أخيراً.
وكانت أنا السبب كله. وأنه لا بد له أن يتخذ نفسه إذا كان يتوقع أن يبعثوا به
إلى الجامعة في الخريف...»

وتنهدت ديانا وهي تذكر ما حدث. وأردفت قائلة :

«ممكن خيف. بدا عليه الغضب فعلاً وقتل لأمه بوقاحة إن الأمر يخصه هو»

سواء ذهب إلى الجامعة أو لم يذهب، وأعتقد أنه سيفعل رأيه»

بللت مادلين شفقتها بلسانها، وقالت :

هكذا إذا ولكنك قلت له بالطبع إنه يجب عليه دخول الجامعة... أليس كذلك يا ديانا ؟ إنه ولد ذكي، هكذا يقول تاتلر، ويجب ألا تقضي حائلاً بينه وبين دراسته»

بدأ على ديانا الصرير، ولكنها ظلت صامتة، وتبادل أدريان و مادلين النظرات، وتساءلت ديانا فجأة وهي تغير الموضوع وتساأل عما تسأله في عشايتها، فزوت لها مادلين أحداث الأمسية، ووصفت لها اللقاء مع هيدريفتون ودعوته لها لزيارة آل ماسترسون، فصاحت ديانا بشيء من الغيرة :

«هل تعتقد أن في وسعي الحضور»

قطب أدريان جبينه، وقال :

«أخشى ألا يكون هذا ممكناً يا ديانا ، لهذه مناسبة للكبار، وله تشييد مثل الشباب مثلك»

ضغطت ديانا على شفرتها، وضغمت :

«الكبار... هم؟ لماذا أنا إذا»

مد أدريان يده إلى عتبة سكارته، ورد في تعمره :

«لست أكثر من تلميذة أمامك يا ديانا سنوات وسنوات، لتسعي بما يخصك اليوم، ولا تنوقي إلى المستقبل قبل أن يأتي»

تهددت ديانا وقالت :

«لا أريد محاضرة يا عم أدريان ، وفي أي حال أعتقد أنها ستكون مناسبة مثيرة جداً من سيكون هناك»

رد أدريان قائلاً :

«أوه... أتوقع أن يكون هناك مديرو المصنع، ومعظمهم رجال متزوجون ومعهم عائلاتهم هناك، وكما قلت لك ستكون مناسبة خالية من الاثارة»

هفت مادلين فجأة :

«ماذا سأرتدي حقاً»

رد أدريان متسماً :

«ستفكرين في شيء ما، ولعل من الأفضل أن أخطب هيدريفتون المسن تليفونياً غداً وأعرف الوقت الذي يجب أن تكون فيه هناك، فإني أكره أن نصل وهم يتناولون العشاء»

أومات مادلين برأسها مرافقة، وقالت وهي تنمطي في كسبل :

«أوه، نعم، في وسعك أن تحبرني يوم الاثنين، إنني متعبة، لقد كان يوماً طويلاً»

غمغم أدريان في جفائيه، وهو ينهض :

«أنا المقصود بهذه التلميح، سأصرف الآن، هل أراك غداً»

قالت مادلين في يسر :

«ستطيع أن تأتي إذا شئت، كن على راحتك، فإذا لم تستطع فسأراك صباح الاثنين»

«حسناً، مساء الخير...»

قالت ديانا وهي تقبل خده :

«تصبح على خير يا عم أدريان ، اتبع الطريق»

وبعد أن انصرف أدريان حملت مادلين الأطباق إلى المطبخ، وتبعها ديانا ، والتفتت مشقة الشاي لتجففها، وتساءلت مادلين وهي تفتح الماء الساخن :

«هل ستقابلين جيف غداً»

ردت ديانا وهي تقطب جبينها :

«نعم - لماذا؟ هل تريدني لشيء؟»

ابتسمت مادلين في شك وهي تنظر إلى ابتها :

«أوه... كلا... أين ستذهبان؟»

ردت ديانا بهدوء :

«حسناً، لمجرد نزهة بعد الظهر في الواقع»

«هل تودين أن تصحبيني إلى هنا لتناول الشاي؟»

لمحت عينا ديانا وهتفت :

«هل أستطيع ذلك؟»

لم يكن جيف قد حضر إلى الشقة إلا مرة واحدة من قبل لتناول الشاي.
وفي ذلك الحين أصيبت مادلين بصداق واضطرت إلى أن تتركها يتدبران
أمرهما. ابتسمت مادلين الآن وقالت :
«بالطبع. وإذا حضر العم أدريان ، فقد نلعب بعد الشاي لعبة المونوبولي أو
شيئاً مثل ذلك.»

بدأ غلي ديانا الثغور :
«أوه يا أمي. لا تريد أنا وجيف أن نلعب ألعاباً»
هزت مادلين كتفها :
«ماذا مستغلان إذا؟»

«ربما نذهب إلى نادي السبعينات.»

قطعت مادلين جبينها. لم تكن لمحبة فكرة ذهاب ديانا إلى مكان كهذا
مساء السبت. لكن كان من الأفضل من ناحية أخرى أن تعرف أنها هناك بدلاً
من السير في الشوارع على غير هدى. قالت :
«لا بأس أفعل ما تشائين.»

٣ - لقاء بلا موعد

خلال يوم الاثنين، وجدت مادلين أفكارها في كثير من الأحيان تسبقها إلى
الأمسية. كانت مناسبة هامة لها أن تخرج خلال الأسبوع. كانت هي وأدريان
يستغلان القطار بين حين وآخر إلى لندن ويذهبان لمشاهدة أحد العروض أو
إحدى الحفلات الموسيقية في قاعة المهرجانات الملكية. ولكن هذه المناسبات كانت
قليلة ومتباعدة. إذ كان أدريان مشغولاً عادة طوال الأسبوع. كما أن ديانا
كان يتعين أخذها في الاعتبار. فقد كانت لا تزال أصغر من أن تترك وحدها
لوقت طويل. وكانت مادلين تقدمها على كل شيء.

وجاء أدريان يوم الأحد لتناول الشاي في الشقة، وقابل جيف هناك.
وقضيا معاً وقتاً طيباً إذ كان جيف ذكياً. وفي وسعه أن يناقش أدريان في
موضوعات لا تقدر عليها المراتان. ووجدته مادلين فتى جذاباً وتساءلت إذا كان
فلقها بشأن ديانا بغير موجب. فمن المؤكد أن في وسع الشباب على أن
يتصادقوا بدون أن يقعوا في ضيق ما. كان فتى حسن المظهر. ومهما كانت
خلفيته كان قادراً على أن يعنى بنفسه وأن يتصرف في أدب كأي فتى مهذب.

ذهبت مادلين إلى وسط المدينة وقت الغداء يوم الاثنين. وقررت أن تكرم
نفسها بشراء ثوب جديد للأمسية. وكانت قليلاً ما تطلق لنفسها العنان إلا في
الضرورات... وحتى ديانا نفسها ذهبت إلى حد القول بأن هذا التسرع من
المناسبات لا يحدث كل يوم.

وجدت ما تريد في متجر صغير للملابس وكان ثمنه أكثر مما توقعت لكنها لم تستطع أن تقاوم إغراءه وهي تجر به. كان من الشيقون الأخضر في خضرة ورق الشجر طويلاً إلى عقيها، موضع الصدر بالترتر وكانت فتحة العنق منخفضة ومستديرة ومطرزة بخرزات دقيقة. وكان للشوب أكمام تنتهي بأساور مطرزة أيضاً بالخرزات. كان ثوباً نموذجياً للمناسبة. وعادت به مادلين إلى العمل وهي تشعر بسرور بالغ. وعندما طلب منها أديان بعد الظهر أن يراه رفضت وقالت مداعبة:

«انتظر حتى الليلة... أريد أن أفاخئك».

ضحك أديان بصوت خافت، وقال:

«حسناً يا عزيزتي، كما تريد، لكنني أتوقع منك أن تعرضيه لي قبل الذهاب إلى الحفل».

ابتسمت مادلين وهزت رأسها، وفكرت وهي تسعد... حقاً إن أديان شخص عزيز، فلماذا لا تستطيع أن تقرر الزواج منه، وينتهي الأمر.

كان من المقرر أن يصل إلى بيت آل ماسترسون في الساعة. وحضر أديان في الساعة إلا عشر دقائق، ليصطحب السيد هينريغتون الذي كان ينتظر في السيارة عندما زلا. أما ديانا فلم تكن ستخرج هذا المساء، إذ كان جيف يدرس فقررت أن تغسل شعرها وتستمع إلى أسطواناتها.

كانت مادلين ترتدي معطفاً من الصوف الكثيف بلون الكريمة، وشركت شعرها ينسدل على كتفيها، فظهرت كأنها في الخامسة والعشرين، حتى قالت ديانا - في شبه غرارة:

«يا للساء يا أماء، لن يصدق أحد أن لك ابنة تجاوزت السادسة عشرة».

فردت قائلة:

«هذا كله مقيد، أليس كذلك؟»

ولكن طيعة ديانا بدت غير قاطعة.

بالغ هينريغتون في إطراء مظهرها. وكان أديان قد أبدى إعجابه بها في ثوبها الجديد، فأبقت مادلين أنها ستضع نفسها واسترخت تماماً. ولم يكن بيت آل ماسترسون بعيداً بل يقوم على أراضي الخاصة، وبضام

بالكشافات ثيلاً، منظره مشرق. وهناك عدة سيارات واقفة أمام المنزل في الفناء الخلفي بالخصي. وأدركت مادلين أن معظمها من النوع الرطب الفاخر الذي ينتجه مصنع شريدان ونظرته. وكانت تبدو مريحة راحة فائقة، ولم تلك مادلين أن حسدت شاغليها على هذا التفوق في وسيلة النقل. وكانت هناك سيارات من طراز شريدان تلك التي اصطدمت بها الأسبوع الفائت وهي على دراجتها البخارية، ولكن لم تكن من بينها سيارة حمراء.

وكان البيت الذي بني خلال القرن السادس عشر تجدد واتسع وبالرغم من مظهره الخارجي كان يتم عن انتباه إلى العصر الأليزابيثي. إلا أن التدفئة المركزية والأضواء الكهربائية والسجاجيد الملونة القذبة في الداخل من معظم أجزائه الغاية.

وكانت القاعة واسعة مرتفعة سقف متحوت، ومضاءة بشموعات كهربائية مشتعلة نصبت في الجدران على مسافات. وأعطت سيات خشبية مريحة للبطانة الخشبية اللامعة وللاثاث المصنوع من البلوط وكانت الأرض مصفولة كذلك، وتبدو مثالية للرقص. إلا أن معظم الضيوف تجمعوا لها يدي في غرفة جلوس كبيرة إلى يمين القاعة، وذهب الخادم الذي أدخلهم وأخذ معاطفهم إلى الغرفة لينيء مرؤوسيه بوسولهم.

جذب المكان لب مادلين، وبينما هي تدرس بإعجاب شرفة المغنين خرجت إليهم لتخبرهم من غرفة الجلوس سيدة وسيدة صغيرة الجسم ترتدي سروالاً بلوذة من اللون الأرجواني الكثيف. وقدمت نفسها على أنها لوسي ماسترسون، وقالت إن زوجها سيلحق بهم فيما بعد. قالت بعد أن تعرفت على شخصياتهم:

«إنه يجتمع الآن على أفراد نيكولاس. نيكولاس قسطل، إنها دانيا يتحدثان في شؤون العمل هذه الأيام. وأمل ألا تظنوه خشناً، ولكن نيكولاس هو الرئيس، ولديها الكثير لمناقشته أثناء وجوده هنا».

قال هينريغتون، وهو يتنسم:

«لا بأس بهذا يا سيدة ماسترسون نحن ندرك الموقف».

وتصورت مادلين أن يكون عمر لوسي بين الخامسة والثلاثين والخامسة والأربعين، وظلت في تقديرها لأول وهلة أنها امرأة سطحية.

قادتهم لوسي إلى الجمع في غرفة الجلوس. كان هناك نحو ثلاثين ضيفاً. كلهم يقفون ويحسون الشراب ويتبادلون الأحاديث القصيرة. وكان هناك جهاز في ركن تبعث منه نغمات الموسيقى الهادئة. وقد عبق المكان بعطر فرنسي وتبع هافانا. وكانت الأرض مغطاة بسجادة ذات لون أحمر كثيف، يتلاءم مع الستائر ذات القطيفة الكثيفة. وهنا وهناك أرائك ومقاعد ذات مساند، متحدة بجلد ناعم، بينما كانت هناك رسومات حية جففت من حدة بياض الجدران الناصع.

واكتشفت مادلين أن الكثير من الضيوف أزواج فيما يبدو وهناك عدد متساو تقريباً من الإيطاليين والأمريكيين. وغاللت لوسي ذلك بأن تتركه شريدان لديها مصانع في إيطاليا وأمريكا كما لديها هنا. وعندما استبىك أدريان والسيد هيرينغتون في مناقشة فنية مع بعض كبار السن من الضيوف الحاضرين وجدت مادلين نفسها بجانب زوجين أمريكيين هما فران وديف ماديسون.

سالت فران باهتمام ومادلين تقبل سكاره عرضها عليها ديف :
«هل تقيمين في أوتريوري؟»
ردت مادلين :

«نعم، لي شقة لا تبعد عن هنا كثيراً في الواقع، أتيان أنتما هنا؟»
قال ديف مؤكداً :

«نعم، لدينا شقة أيضاً، ولكننا نتوقع أن يكون لنا بيت قريباً في المشروع الجديد قرب المصنع، في أواخر العام.»
«هل أنتما من أمريكا؟»

ابتسم ديف ابتسامة ساخرة وقال :
«أصبحت، وأظن أن الملكة واضحة.»

ضحكت مادلين بصوت خافت، وقالت :
«خطر لي أنكما ربما تكونان هنا في زيارة لآل ماسترسون...»

ثم تطلعت إلى فران قائلة :
«هل تحبين الكولترا؟»

قالت فران بدون حاسة :

«أعتقد لا بأس بها، ولكن لا يوجد هنا الكثير لفعله، أليس كذلك؟ ونحن نأمل أن نذهب إلى إيطاليا فيما بعد، هل سبق لك السفر إلى الخارج؟»

قالت مادلين في حزن :

«إلى فرنسا فقط، ثم تمتد مات زوجي وأنا وابنتي لا نساغر كثيراً.»

هتف ديف في دهشة :

«ألك ابنة؟ ابنة طفلة؟»

ردت مادلين باسمة :

«كلا، إنها في السادسة عشرة من عمرها في الواقع، ولكنني أشكرك على كلنا لك الرقيقة.»

هتف ديف : «وهو يتسم ابتسامة لاهية عريضة :

«هذا ليس عدلاً... وما كنت لأقول إنك تبدين أكثر من الخامسة أو السادسة والعشرين.»

بدت فران وكأنها انطفأت حاستها الآن وظهر عليها شيء من الضيق. وسرت مادلين عندما جاء رجل آخر للانضمام إليهم. وكان مثل ديف طويلاً أشقر، ملامحه مقبولة وقد انتشر النمش في وجهه. وكان من الواضح أنه يعرف آل ماديسون جيداً وقال :

«لحمية لكما... هل لدينا عضو جديد في المنظمة؟»

رد ديف وهو يلتفت إليه :

«كلا... هذا هارفي كامتفر يا مادلين... هو أيضاً عضو في عائلة شريدان.»

حينئذ مادلين بأدب، وهي ترمي له برأسها :

«كيف حالكم؟»

رد هارفي مبتسماً بسخرية :

«أنا بخير، وبخاصة عندما تهتم بي امرأة جميلة، وبالنسبة، هل لك زوج في مكان ما هنا؟»

أجابت مادلين : «ووجنتها تقودان :

«إني أرملة...»

وشعرت بأن طريقته المباشرة إزاءها تغير الارتباك قليلاً...

قال هارفي وهو يفيض مرحاً:

«عظيم، ظننت أنك تبدين وحيدة غير مرتبطة، هل لي أن أربط نفسي بك؟»

طلعت مادلين مستحبةً بآل ماديسون، وتساءلت بخذر:

«أليست زوجتك هنا؟»

فانفجر ديف ضاحكاً:

«هارفي متزوج! أتزوجين؟ من يمكن أن يأخذ على عاتقه عيناً مثله؟»

قال هارفي في إياه كاذب:

«لا تعياني به، الأمر ببساطة هو أنه لا يوجد من يفهمني.»

ضحكت مادلين، كانت تستمتع بهذا المزاح الطيب، فقد انقضى عليها وقت

طويل منذ كانت بصحبة الشباب، كشابة يمكنها الانقياس في هذا المرح، أما

أديان - رغم أخذه الأمور بسهولة - فلم يكن من هذا الطراز المرح الذي

يمكن أن يسخر من نفسه، وحتى لو لم يكن لديه وقت للمزحاة، وبسبب

زواجها المبكر افتقدت مادلين هذا النوع من المبادلات الخفيفة.

قال ديف فجأة:

«أوه، هذا رئيسنا اللامع، لا بد أنها أتتيا عملها.»

التفت مادلين والآخرين، كان هناك رجلان يدخلان الغرفة، كلاهما

طويلان، ولكن أحدهما كان أعرض منكياً، له ملامح نحيلة حسنة المظهر، وكان

كلاهما يرتديان بذلة غامقة، ولكن الرجل العريض المنكبين كان أكثر سمرة،

وعرفت فيه مادلين على الفور الرجل الذي كان يقود السيارة الحمراء، من

يكون؟ كوزاد ماسترسون أو نيكولاس فيتال؟ من المؤكد أنه لا يمكن أن

يكون الأخير.

سألت مادلين قران في رقة:

«أيها السيد ماسترسون»

ودت قران:

«إنه القادم إلى اليسار يا حبيبتي... ألا تعرفينه؟»

«كلا، أخشى ألا أكون أعرفه... الرجل الأسير إذاً هو نيكولاس فيتال؟»

«نعم، وسيم أتيس كذلك؟ إنه إيطالي بالطبع، وهذا يقصر سمته البالغة، وقد

قضى وقتاً طويلاً في الولايات المتحدة ومن الطبيعي أن تحبه جميعاً، لكنني كما

ترين اكتفيت بديف.»

وضحكت عندما ظهر الاستياء على وجه ديف، وأردفت:

«إن نيكولاس يا حبيبتي، هو أكثر الذكور مراوغة منذ آدم.»

شعرت مادلين بمعدتها تنقلب، لقد احتطمت بالسيارة التي يملكها صاحب

مصانع شريدان، فلا عجب أن يكون أصابه الضيق!

تطلع نيكولاس فيتال، سام ساخر إلى الحشد القائم في غرفة الجلوس، كان

هذا الطراز من الاجتماعات يستهـم إقراط في الشراب وكثرة فائفة في عدد الاناث

المتفرسات، الملتفات حوله، ولو لم يكن لديه عمل مع كوزاد ماسترسون لما جاء

الليلة، فقد عثر على ناد صغير في لندن أقرب إلى ذوقه، ولكنه الآن هنا في أي

حال، ويتوقعون منه أن يبقى لفترة على الأقل.

بحثت عيناه الحادثان في أرجاء الغرفة عن هارفي كامنغر، كان هارفي

مساعدته الخاص ومزيل العلاقات العامة لديه، وكان هارفي يحب هذا

الطراز من المناسبات.

رأى هارفي على الفور، كان يقف مع ديف ماديسون وزوجته،

وقتاً آخرى، والفترض أن تكون الفتاة مع هارفي

اعتذر لمضيفه وثنى طريقته بين الحشود المشررة إلى حيث كان يقف هارفي.

وبادل الضيوف الآخرين تحياتهم وهو يمر، ولكنه لم يقف ليتحدث، مما أشعر

جماعة الاناث بالأسف والألمى، كان الجميع يعرفون بالطبع من هو، وكان يعلم

أنهم سيديرون التخمينات عن نشاطه، ولم تكن لحياته الخاصة وجود تقريباً في

بعض الأحيان، وكان يعلم أن له سبعة ناسية فيما يتعلق بالنساء، وإلى حد ما

كان لسمعته ما يبررها، ولكن نيكولاس نفسه كان يدرك أن النسبة اللواتي

ورطن أنفسهن في حياته لم يتوفعن أكثر مما أعطاهن، ومن المؤكد أنهن لو أردن أن

يلعن اللعبة على طريقته لما كان هو الرجل الحقيقي وراء قناع الدبلوماسية.

وكان هارفي وزفيقته مشغولين بالحديث عندما اقترب منها، وكان ثمة

وقت أتبع له فيه أن يتسائل عن تكون الفتاة، وعم يتحدثان. كانت طويلة جميلة، لشعرها لون جميل غير عادي، يستدل بطلاقة على كثفيها ويبدو كثيفاً حريزاً. وقالت له خواطره إن هارفي يحسن اختيار رفيقته، وما ليت أن قال وهو يضع يده على كتف هارفي :

«هل يضايقك أن أفض هذا الحديث الهامس بينكما؟»

استدار هارفي فجأة، وقال وهو يتن :

«يا إلهي! ظننتك شرطياً ألا بد لك أن تفتح أجواء شخص مثل علي هذا النجوة»

ابتسم نيكولاس ابتسامة عريضة، ثم ضاقت عيناه. كانت الفتاة التي تقف مع هارفي معروفة له، أنها راكية الدراجة البخارية عندما اصطدمت بسيارته يوم الجمعة الفائت. وكان من الواضح أنها عرفته أيضاً، إذ اعتدل وجهها فجأة بالاحمرار. قال متشدداً :

«حسناً، حسناً، العالم مكان صغير حقيقة».

بدت الحيرة على وجه هارفي :

«ماذا؟ هل يعرف كل منكها الآخرة؟»

قال نيكولاس بطريقة جافة :

«السيدة سكوت وأنا تصادفنا يوم الجمعة الفائت، كنت في سيارتي وقتئذ وكانت هي تركب دراجة بخارية».

رفع هارفي حاجبيه :

«حقاً... لم تذكرني يا مادلين أنك تعرفين نيكولاس عندما دخل الغرفة؟»

شعرت مادلين بالحرج كأنها تلميذة، وقالت :

«إنني لا... أعني... إن السيد فيثال ساعدني على النهوض فقط، هذا كل ما في الأمر، ولم تجد الفرصة ليتعرف أحدنا على الآخر».

بدا السرور على نيكولاس. لقد ظن في الأسبوع الفائت أن لها وجهاً يتبر الاهتمام، ولكنها الليلة تبدو جميلة حقاً، وأراد أن يعرف عنها المزيد، فتون رقم دراجتها البخارية وهي تنصرف بها، وكان ينوي أن يعرف المزيد عنها، ماذا تفعل مع هارفي ؟ خاصة وأنها كانت متزوجة؟ لم يكن لديه شك في طراز النساء

المتزوجات اللواتي يعرفهن، وهن ضالعات مع رجل أو آخر، ولكن هذه المخلوقة كانت تبدو مختلفة، لم تكن على شاكلة ما ألف من معارف من النساء، كانت لها سمات واضحة سافرة، يمكنك أن تقول إنها لينة، وكانت لها عينان واسعتان جميلتان. قال بلطف، وهو يتجاهل التعبير الذي بدا على وجه هارفي :

«كن صديقاً، وأحضر لي شرباً يا هارفي».

لوى هارفي سمات وجهه، وسأله في لهجة عدوانية تشيلية :

«الآن لماذا جئت هنا إليها الرفيق القديم؟»

فقال نيكولاس بلمحة لطيفة مرخية :

«حتى تستطيع أن تشتري لي شرباً... انطلق الآن إليها الرفيق القديم».

تنهد هارفي وتطلع بأسف إلى مادلين. وقال بصوت مغمم بالعاطفة :

«فليكن... إن لكل منا مصيبته».

ضحكت مادلين وهو ينصرف متظاهراً بحرج شعوره، وأخذت تدبر كأسها

بعضية بين أصابعها، وهي تشعر بلسانها معقوداً، وكانت تدرك أنه يدرسها

بامعان، وما ليت أن قال :

«لم تضايقي لأنني اقتحمت حديثك مع هارفي، اليس كذلك؟»

تلذعت مادلين إليه وهزت رأسها نفياً بقوة :

«كلا... على الإطلاق... لم أقابله إلا منذ نصف ساعة فقط».

«كنت أظن أنك ربما تكونين آخر فزواته».

ابتسمت مادلين :

«وأوه، كلا، لا شيء من ذلك على الإطلاق».

«حسناً».

قال نيكولاس ذلك وهو يبدو جاداً، وأخرج عليه سكاثره، وعرض عليها،

فتناولت واحدة، واستطرد قائلاً :

«وزوجك، أهو هنا الليلة؟»

«كلا، زوجي مات منذ تسعة أعوام».

بدت عليه الدهشة البالغة وقال :

«تسعة أعوام؟ أرجو أن تفكري لي، ولكنني ظننت أنك حديثة الزواج».

تهدت مادلين قائلة:

«أى أرجوك، أنا في الثالثة والثلاثين، وأرجو ألا تقول إنني أبعدو كفتية دون العشرين.»

ابتسم، فكانت مختلفة على نغمة يثير الانتعاش، فالتساءل في عمرها عادة يحين اعتبارهن صغيرات، وكانت تجاريه قد أفادته بأن النساء لا يحسن أبداً أن يعنبرهن أحد في أعمارهن الحقيقية. فالشابات منهن يحسن اعتبارهن أكبر سناً وأكثر خبرة، والمتقدمات في السن يفتقن كل وقتهن في محاولة استعادة الشباب، الأمر الذي يؤكد أعمارهن الحقيقية.

قال موافقاً في لطف:

«حسناً، ولكنك امرأة جذابة للغاية، وأعتقد من واجبي الاعتذار لك عن سلوكي اللفظ الأسير القاتل، لم أكن مهذباً، وأنا أسف، وأؤكد لك أنني لست معنوم الاتهام هكذا عادة، ولو لم تقابل هذا المساء بالتأكد سأقوم بجهد لاكتشاف عنوانك والتكفير عما فعلت.»

تحدثت مادلين، وهي تشعر بأنها غير قادرة على الفهم:

«ليس هذا ضرورياً.»

«وأنتك، فبعد ظهر ذلك اليوم تلقيت مكالمة مزعجة من ابنتي قبل أن أغادر المصنع، ولذلك فإنني كنت في حالة غضب ذهني كبير.»

«لا بأس...»

قالت مادلين ذلك وهي تشعر بقليلها بغوص بلا سبب عند ذكر ابنته. كان يجب أن تعرف أنه متزوج.

«هل... هل زوجتك هنا معك؟»

رد قائلاً وهو يمزك فيه:

«زوجتي كذلك ماتت، توفيت عندما ولدت ماري... منذ خمسة عشر عاماً.»

أجبت مادلين رأسها وقالت:

«أدرك ذلك، إن لي ابنة أيضاً... وهي أكبر سناً بعام... في السادسة عشرة.»

بدا مذهولاً، وقال:

«حقاً... إن ماري لا تزال في روما، وهي تريد أن تأتي إلى هنا وتلتحق بي. إنها

بالطبع تعترض على غيابي الطويل في الخارج، وهي تعيش مع والدي، ولذلك فهي مدللة، وعادة تحصل على ما تريد.»

تساءلت مادلين وهي تتطلع إليه مرة أخرى:

«هل تنوي البقاء هنا طويلاً؟»

أشار إشارة من لم يقرر بعد، وقال:

«شهران، أو ربما ثلاثة. مضى علي هنا فقط عشرة أيام. لا أستطيع القول على وجه التحديد، لو أحييت المكان هنا فربما بقيت.»

وهنا عاد هارفي بصنيعة من الشراب، لم يكن في طول نيكولاس، وإن

كان كلاهما يبدوان عملاقين بالمقارنة مع الرجال الذين ألقت مادلين

صحبتهن.

وقفوا يتحدثون جميعاً بعض الوقت، ثم انضم إليهم كون ماسترسون وزوجان شابان آخران ثم تقدميهما إلى مادلين على أنها بول وماري - لي

لوكاس. وأخذت ماري - لي تشرشر بلطف مع مادلين. تسألهما إذا كان لهما

أولاد، قائلة إن لديها أربعة. وكانت مادلين خلال الحديث تحسدها على افتقارها

الناس إلى الاحساس الخجول بالذات. وكان يساورها الشعور بالارتباك إزاء كل

ما يحدث وكان كون ماسترسون يتحدث الآن إلى نيكولاس فينال، الذي

كان يصفي إليه باهتمام، وهو يجذب أنفاس سيكلرته بين حين وآخر، وكان يبدو

وسياً إلى حد كبير أهداب جفونه طويلة وكثيفة وبالغة السواد. ولم تكن على يقين

إذا كانت مسرورة أو أسفة على انتهاء حديثها. كانت قد استمتعت بحديثه،

ولكن كان من حظها أيضاً أن يعود هارفي. وكان واضحاً في أي حال أن

نيكولاس فينال يبدو على راحته تماماً عندما يتحدث إلى النساء، وكانت

طريقته الساحرة تنبئ عن خبرة عريقة وليست متكلفة، إنه متمرس في الحديث

مع النساء، بينما هي مستجدة في الحديث إلى الرجال.

جاء أدريان للحاق بهم فيها بعد. وأجبت مادلين بالهجل إذ أدركت أنها

نسيت كل شيء عنه وعن هينرييتفون للشرة. وأخذ أدريان بذراع مادلين

قائلاً:

«يبدو أنك تستمتعون بوقتكم.»

فقال نيكولاس وهو يرى ما يبدو من جانب الرجل الآخر من سلوك الاستحواد إزاء مادلين.

«قل لي كون . هل الناظر الذي حدثني بشأنه هنا»

أوماً كون برأسه وقال في ود .

«أجل . . . وسأقدمك إليه»

وهكذا وجد أدريان نفسه يتحدث إلى صاحب المصنع . والمنظمة الكبيرة التي يملكها . وكان في وسع مادلين أن تستغل من تعبيرات وجهه أنه مبرور للغاية . وتساءلت أي مبلغ كبير من المال فيقال يمكن أن يؤدي دوراً في مدرسة أدريان .

قال نيكولاس . باهتمام .

«أخبرني . كم من التلاميذ الذين يلتحقون بمدرستك ؟ وهل هي مدرسة كبيرة»

قال أدريان . وهو على استعداد تام للحديث في موضوعه المفضل :

«يتراوح سن التلاميذ بين الحادية عشرة والثامنة عشرة . ولدينا نحو ٨٠٠ تلميذ في مجموعهم»

«أنتي ماريا في الخامسة عشرة . . . وهي لا تهتم كثيراً بالمدرسة على الإطلاق فيما يبدو ونحن نعاني المتاعب حتى بشأن إحصائها إلى هنا . وقد خطر لي أن المدرسة في انكلترا قد تكون لا بأس بها . . . المدرسة الداخلية بالطبع»

غشم أدريان . بتعبير مشط .

«بالطبع . . .»

كان يساوره شعور بأن فيقال سيقترح عليه إرسال ماريا إلى أوتريبري . تسأل نيكولاس فيقال . وهو يقرب أدريان بعينين حادتين :

«هل هناك مدرسة تستطيع أن توصي بها»

يسطر أدريان يديه قائلاً :

«إنني لا أعرف سوى القليل عن المدارس الداخلية بصفة عامة . هل تود أن ترسلها إلى واحدة من مدارس البنات الأفضل ؟ أو هل تفضل المدارس المختلطة»

ابتسم نيكولاس قائلاً :

«أعتقد من الأفضل أن تكون ماريا الكلمة في هذا الشأن . وإذا وافقت حقاً على دخول المدرسة هنا . فأعتقد أن أقل ما أفعله هو أن أسمح لها باختيار مدرستها . ألا تعتقد ذلك ؟»

وأوه . . . في هذه الحالة . . . بالطبع .

كان أدريان يضغط شفطيه . وكانت مادلين تراقبه . وثمة تخمين بخاطرهما بأنه بعد هذا النوع من السلوك خطأ تماماً . فقد كان أدريان يرى دائماً أن الأطفال لا يعرفون أبداً ما هو أفضل لهم . وأن على الكبار أن يقرروا لهم .

تساءلت وهي عاجزة عن حجب السؤال :

«ألن تعتقد رؤيتك وهي في المدرسة هنا . وأنت في إيطاليا ؟»

تلاقت عينتا نيكولاس الزرقاوان بعينيهما لحظة . ووجدت نفسها تشعر كأنها تخوض سباقاً ولا تستطيع أن تلتقط أنفاسها إلا بصعوبة . ولم تستطع أن تنصرف بعينيهما عنه . ولم تستطع أن تستجمع إحساساتها البهتة إلا عندما وأصل حديثه ونظر إلى شخص آخر كان من السهل التأثير عليها مثل الطفل . فأرغبت نفسها على ألا تتطلع إليه من جديد . وكان هذا أمراً عسيراً للغاية . لأنها أنها بدت منهورة بكل ما يقول ويفعل .

قال رداً على سؤالها :

«أفهم أن في وسعي أن أوفر وقتاً بحضوري إلى هنا ورؤيتها . هذا لأن والدتي تريد الذهاب إلى أمريكا لعدة أشهر هذا العام . وسيخلفها من مسؤولية ماريا أن تكون هي أيضاً بعيدة عنها»

كان أدريان يومئ برأسه موافقاً . وكانت مادلين وهي تلوي أصابعها تفكر : إذا دخلت ماريا المدرسة في انكلترا . فالأرجح أن يأتي نيكولاس فيقال إلى هذه البلاد كثيراً . وليس هناك مكان أصح لإقامته سوى قرب المصنع . قد تراه إذاً مرة أخرى .

كانت في داخلها توبخ نفسها على انتقالها إلى الحنكة . ولكنها كانت تبدو من الخارج هادئة . ما أسخف أن تعتبر نفسها مركزاً مناسباً لاهتماماته . لأنه كان إنساناً ثرياً وقويماً . فلم يكن في الأغلب يتوقع من أي امرأة إلا أن تنهافت عليه لتصيح

أولئك صلة به. إن أي اهتمام قد يظهر نحوها لن يكون إلا عابراً. ورغم أن الفرصة الآن تبدو جذابة، لكنها ستكون الحاسرة عندما ينتهي الأمر إنها في أي حال أرملة محترمة لها ابنة يسهل التأثير عليها في سنّها. وتستطيع أن تتخيل ملامح التضييعة على وجه ديانا لو أخبرت أنها تبحث في إقامة علاقة مع مليونير إيطالي، إنه أمر يبعث على الضحك حقاً، وهو حتى ثم يطلب منها موعداً بعداً. ومع ذلك ففي نظره إليها ما يوحي بأنه سيفعل.

جاء هيدريغتون ليلحق بهم ويعرف جلية الأمر. كان هو الذي يستطيع أكثر من أديان أن يشير على نيكولاس فينتال بالمدارس المتاحة لماريا. فانتهر الفرصة للاعراب عن رأيه ومضى الخوار مملاً رتيباً. تاركاً مادلين لمخاطبتها. ولم تترك أن نظرة نيكولاس فينتال كثيراً ما كانت تنصرف في اتجاهها لتحدث فيها، أو أنه كان يتمنى أن ينصرف الآخرون ويتركوها يتحدثان. مضت سنوات منذ أن وجد امرأة تشير فيه أكثر من مجرد اهتمام عابر. كانت النساء عادة ما يؤذين أعراضهن ثم ينساهن. وكان الحديث معهن محدوداً... الخوض... الطراز... آخر ترميم... عادات الشرب الحالية... تلك كانت الموضوعات السطحية التي اعتادها معهن. أما مادلين فتصت بين حين وآخر إلى صوته، إذ بها تجده مزعجاً على نحو ظاهر. ويصبح أحش عبقاً، يعطي المرء الاحساس بأن ما يقول هو لأذنيه وحدها. والواقع أن نيكولاس كان قد بدأ يزداد ضيقاً بالمسألة كلها. أراد حقاً أن يعرف مادلين بشكل أفضل. ولكن هذه الدائرة التي تحيط به من المخلصين بدأت تنصرفه عن غرضه فأراد أن يتحرر منها. فما لبث عندئذ أن أنهى الحوار قائلاً، وهو يغطي عقب سبكارته في متفوضة قريبة :

«أشكركم جميعاً على نصائحكم، سأبلغ بها ماريّا بالتأكيد عندما أقابلها.»
انقضت مادلين من بلادتها لدى هذه الكلمات، وهتفت، والكلمات تتطاير من فمها بفن سيطرة.

«هل... هل ستعود إلى إيطاليا؟»

كانت عيناه رقيبتين وهو ينظر إليها قائلاً :

«كلا... ماريّا ستأتي إلى هنا، وسيتقّى والدتي في روما لانتهاء الأمور ثم

تأتي ليلحق بنا.»
«أوه...»

قالت مادلين ذلك ثم دخلت فوقعتهما من جديد، وتساءل هيدريغتون في دهشة :

«ألك منزل إذا؟»

رد نيكولاس بطريقة جافة وقد بدأ يضيق بهذه الأسئلة :

«كلا، لدي جناح في فندق ستاج.»

كان فندق ستاج أكبر فنادق أوتربري، فاخراً، متسعاً، يرضى أناساً من طراز فينتال. وكانت هذه حركة بارعة من جانب أصحابه، الذين جنّوا تخميناً صحيحاً أنه سيأتي إلى أوتربري لا يستطيعون تحمل نفقات طعامه وشراجه الباهظة، ثم لم يكن مستوحاً بدخول أبوابه لعناصر غير مرغوبة.

جاءت لوسي ماسترمون عندئذ، وفضت كل شيء على نحو يبعث الارتياح في نفس نيكولاس. فقد نظرت إليه بخجل وقالت :

«يا عزيزي نيكولاس... عليك في الحقيقة أن تحتلظ بجميع الحاضرين أكثر مما تفعل. إنه لن يوافق سرورنا أن تكون بيتنا. فنحن لا نراك أبداً هذه الأيام.»

قالت هذه العبارة الأخيرة في شكل لوم، وتساءلت مادلين وهي ترتقب رد الفعل لدى نيكولاس عن درجة القرب التي تود لوسي أن تكون بينها وبينه رئيس زوجها، أو إذا كانت هناك علاقة ما سابقة بينهما. كان هناك في سلوك لوسي ما يوحي بذلك، وشعرت مادلين بشيء من القشيان.

هر نيكولاس منكبه العريضين، وتطلع إلى ساعته، وقال ببرود :

«أسف يا لوسي، إنني في الحقيقة رجل كثير المشاغل.»

ردت عليه في ضيق :

«إنك تهرق نفسك بالعمل، ويجب أن تسترخي أكثر.»

تطلع نيكولاس إليها، واستطاعت مادلين أن ترى عينيه تضيقان.

«ومن أين لك أن تعرفي أنني لا أعقل؟»

قال ذلك عن عمد، فتصلبت لوسي، ونظرت مادلين بعيداً، فقد كان ما رأيته كافياً. ورأى نيكولاس مادلين تشيع عنه، وشعرها الرائع يلسع في

الأضواء الخافتة. وكان قد انتهى أن يتحدث إليها قبل أن يبرح المكان.
هتقت لوسي في صوت غاضب خفيض :
«أنت شخص مستحيل»

قال بغير اهتمام :
«نعم، أنا هكذا، أليس كذلك ؟ عفواً، هناك من أريد أن أتحدث إليه»
وتقدم إلى جانبه، مادلين . وكانت تنفخ بعيداً عن الآخرين، وقد استغرقتها
خواطرها فيما يبدو. وسألها برفق، وعينه مركزتان عليها وهي تستدير لتواجهه :
«هل تسمحين لي مرافقتك إلى البيت»

تطلعت إليه، مادلين، وهي تكاد تكون مسلوية اللب، واتسعت عينها
وشعرت بوجهها يحترق من جديد. إنه شعور يبعث على الضيق، أن يعرف
الإنسان عجزه عن السيطرة على لون بشرته. وكانت عيناه ذات الأهداب الكثيفة
تومئتاها تنوعاً مقنطرياً فيما يبدو. كما تباعد عنها النور الذي أحسست به عن
علاقته، لوسي. وكانت موقنة أنه يدرك تأثيره عليها، فارتعدت رغماً عنها.
وقالت وهي تعقد ذراعها معاً :
«جئت مع أدريان سنكلير»

قال بصوت جاف :
«لم أسألك مع من أتيت، سألتك إن كان في وسعي أن أرافقك إلى البيت»
قالت وهي تلعثم، وتشعر بحرق :
«ولكن... ولكن أدريان يتوقع... أن أذهب معه»
«وهل هذا يهمك»

هل هو كذلك؟ شعرت مادلين كأنها في فح، لم تكن تستطيع أن تقول في
زواجة نامة أن أدريان، بالغ الأهمية بالنسبة إليها، إلا على أساس صداقة
محض. ولكن من ناحية أخرى، كم هي مديونة له أكثر من هذا القريب نسبياً
ترددت... وكانت تبدو عصبية. أرادت أن تنغمس فيما أمامها وأن تقول إنها تشعر
بالإثارة إذا رافقها إلى طرفين في وقت واحد بالدرجة نفسها من الشدة، لكن هل
هي الدرجة نفسها حقاً لو صارت نفسها لا تعترف بأن فكرة الذهاب إلى أي
مكان مع نيكولاس فينال في حد ذاته إشارة كافية. أما أدريان فلم يكن في

وسعة أن يكون مثيلاً أبداً

كان نيكولاس يتفرسها على نحو وازين وهي تهتز على الخافة. ثم قال
بصوت فيه نغمة السرور :

«أنا موقن أنه إذا استغرق الأمر مثل هذا التفكير، فإثارة هولا»
حاولت مادلين أن تجد كلمات تفسر بها ترددها، ماذا يظن فيها الآن ؟ ما
ليست أن وافقته أخيراً قائلة :
«لعلك بحق فيما قلت، الأمر ببساطة هو أن أدريان وأنا صديقان قديمان ويجب
ألا أخرج مشاعره»

قال نيكولاس في دهاء :
«إن ما تعنيه حقيقة هو أنه مهتم بك»
اعترفت في هتاف :

«أظن أنني أعني ذلك، لقد عرف كل منا الآخر لبعض سنوات الآن»
«وكنت أرملة طوال هذا الوقت، أليس كذلك»
«بل...»

«إذاً، فإني أعطف أنه إما غبي جداً، وإما أنك عنيدة جداً»
ابتسمت مادلين وقالت :

«الأخيرة، فلا يستطيع أحد أن يصف أدريان بالغباء»
هو نيكولاس كشيء وقال :

«ثم ماذا ؟ إلى أي شيء برصنا هذا ؟ هل تودين أن تأتي معي... إذا لم يكن هناك
سنكلير ليتدخل بالطبع»

مرت بيدها على شعرها في اضطراب، وقالت وهي تتنهد :
«أنا... أوه... أظن ذلك»

بدا عليه الرضى والارتياح، وقال :
«حسنًا، سأحدث إذن إلى سنكلير»

حدثت فيه بتوسل :
«أوه، كلا، أرجوك، إنك ستعطي بذلك لأدريان انطباعاً خاطئاً»
أخرج عليه سكارته الرقيقة من جيبه وقدمها إليها وهو يتسائل :

فيلت مادلين واحدة من السكاكيز الطويلة، وابتدته بعد أن أفعلا
السيكارتين

ه أدريان لن يفهم أبداً.

وفي هذه اللحظة لحق بها أدريان متسائلاً:

«هل أنت مستعدة للانصراف يا مادلين؟ إن هيدر يفتون لا يريد أن يتأخر
لأن زوجته وحدها.»

تقرص فيه نيكولاس اللحظة، ثم قال:

«هل أفهم من ذلك أنك ستقوم بتوصيل هيدر يفتون إلى بيته؟»

قطب أدريان جبينه وقال:

«هذا صحيح...»

فالتفت نيكولاس إلى مادلين قائلاً:

«أفترض إذا أنه ما دامت السيدة سكوت لا تستعجل الانصراف في هذه
اللحظة، فإعسل بنفسك على أن تحصل إلى البيت سائلاً وأعطيك من هذه
المسؤولة.»

دخل أدريان وحدها عليه ذلك لم يرد أن يسي إلى الايطالي، كما أن فيسار
لم يترك له خياراً إلا قبول عرضه. كانت مادلين وحدها هي التي تستطيع
تغيير الموقف، فنظر إليها متسائلاً، وكانت مادلين نفسها تشعر بالذنب. كانت
هذه مغامرة جديدة لها يساورها مخوف من عواقبها. ومع ذلك فلم تستطع أن تتول
الكلمات التي أراد أدريان أن يسمعها، إنها ستذهب معه الآن، هذه اللحظة.
وعندما بدأ واضحاً أنها تنوي البقاء، قال أدريان في تصلب:

«حسناً جداً... هل أنت متأكدة أنك تريد البقاء يا مادلين؟»

رسمت مادلين على شفتيها ابتسامة، وغمضت بصرها.

«لا، يضايقتني البقاء، وإنه لطيف بالغ من السيد فيسار أن يعرض مرافقتي إلى
البيت.»

بدأ على أدريان أنه غير مقتنع. كان قد شاهدها يتحدثان معاً وتبادل عينا
يقوضان فيه، وهو الآن يعلم، لقد خرج لل لحظة، ودعش من أن مادلين، التي

كان يظن أنه يعرفها جيداً، تتصرف على هذا النحو من الخيانة. إنها لم تكذب تعرف
الرجل الآخر في أي حال، وكان أدريان قد سمع بصيت نيكولاس، ولما لم
يكن يعلم بلقائهما العرضي في الأسير، فقد بدا له الأمر أكثر سوءاً. لم
يكن ليصدق أبداً أن تكون سكرتيرة على هذه الدرجة من الخداع.

تردد لحظة أخرى فقط، ثم استدار فجأة ومشى إلى حيث كان هيدر يفتون في
انتظاره. وهنا شعرت مادلين بذب أكبر، وبالوضاعة أيضاً، فالتفتت إلى
نيكولاس وهي تنهد:

«أنا آسفة يا سيد فيسار، ولكن من الأفضل أن أذهب معه. فسوف يظن
أنني أفرط في نكرانه، وعلى أي حال، فلولا ما كنت هنا الليلة.»

مد نيكولاس يده واحتجزها، وطوقت أصابعه الصلبة ذراعها المستسلمة،
وشعرت بنفسها تضعف. قال بهيئ:

«قد يكون الأمر كذلك. ولكنك الآن هنا، وأنتي أريد مرافقتك إلى البيت، وعادة
ما أنصلي على ما أريد. أما هو فيستغلب على ما هو عليه.»

كانت في صوته غطرسة فشعرت ببعض الضيق، وردت في تصلب:

«أستطيع أن أخذه لراي بنفسك... شكراً لك.»

«هل تستطيعين طفاً؟ إنني أتساءل، وفي أي حال لحات الألوان وانصرف.»

كان قد انصرف بالفعل! فبعد أن وقع مضيقه وزوجه، غادر الغرفة بدون أن
يلقي نظرة واحدة إلى الخلف. رته الخافد القرار عنها.

تلفتت مادلين حولها وهي تشعر بخوف عتسي يتنامي. كانت الغرفة فائقة
الاشباح غاصة بالأغراب، حتى الرجل القائم بجوارها كان غريباً. لا بد أنها محتونة
تماماً. ومن المؤكد أن يظنها أدريان كذلك.

كانت تترك أن يد نيكولاس لا تزال تمسك بذراعها، فتطلعت إليه بعينين
متسائلتين. وما كاد يراها التحديق حتى ظهر هارفي ليتحدث إليها،
فتحمرت فوراً من قبضته، وحكت ذراعها حيث كان يمسكها وشعرت بالدم
يتدفق في عروقها... وتساءل هارفي: «وعيناه ترفضان».

«هل منعت نفسك إذا؟»

ابتسمت له مادلين ابتسامة خفيفة وقالت:

«كثيراً... أشكرك».

وايتم هارفي بتسخيرة وقال:

«تدين كطفلة تشكر معلمها على حسن المعاملة».

أصلحت مادلين وضع كتفيها وقالت:

«أسفة... في الواقع كان الأمر كله تجربة جديدة تماماً بالنسبة إلي».

قال هارفي بسهولة:

«يجب أن تكرري التجربة قريباً مرة أخرى. يوجد عادة رجال قلائل غير مرتبطين

مثل في هذه الاجتماعات... مجتمعهم أن تكون هناك امرأة جذابة يتحدثون إليها...»

قال ذلك وهو يلوي شفتاه ووجهه أمام نيكولاس صراحة واختلست

مادلين نفسها نظرة في انعقاد نيكولاس. ولكنه كان الآن يتحدث إلى رجل آخر

كان انضم إليهم. وكانا يبدوان مستقرين تماماً في حديثهما. ومضى هارفي

يقول في صوت خفيض:

«هل ما سمعته صحيح؟ هل سيرافقك نيكولاس حقاً إلى البيت؟»

فهزت كتفيها التحيين وقالت:

«هذا صحيح... ولماذا تسأل؟»

أطلق هارفي صلفاً خفيضاً فيه وقال في إعجاب:

«الله الله! من المؤكد أنك فتاة صغيرة شجاعة. فالسياح لنيكولاس يرافقتك

هو شيء آخر غير السياح في يرافقتك انتهى الخطوك. إن نيكولاس ينتهم

القنيتات الصغيرة مثلاً تلصقهم إطفارك».

«أوه... لا تكن مضحكاً».

هتفت مادلين بذلك وهي تدرك مع كل لحظة غر أنها كانت حقاً إذ لم

تتصرف مع أدريان. فهي هنا لا تظهم شيئاً عما يجري. وليس هؤلاء الناس

على صداقتها إنها أيضاً لا تنسب إلي طيقتهم الاقتصادية كبدية. ولذلك فإن

مداعة هارفي ضابقتها الآن. فقالت:

«أنا قادرة تماماً على العناية بنفسى... أشكرك».

بدا هارفي متشككاً:

«هل أنت قادرة على ذلك حقاً؟»

تطلعت مادلين نحو نيكولاس مرة أخرى. كان يشرح للرجل الآخر جانباً

من تصميم فني لسيارة. وكان يقيس بأصابعه النجيلة السراء حجم هذا الجزء

الموصوف. وشعرت مادلين بقلتها بقوة ضربة من ضرباته وتساءلت كيف

يكون شعورها وهاتان اليدان تلمسانها وتربتان عليها. شيء ما في هذا الرجل

اجتذبا إليه بشدة. وكان من المزعج أن يساورها هذا الشعور. فحتى الآن لم

يكن ثمة رجل أثر عليها مثل ذلك. ولا حتى جو. بالتأكيد كانت تجربة

جديدة غريبة. وكانت قد بدأت تدرك بعض الأحاسيس عن نفسها لم تكن تعرف

أنها موجودة... وهنا تطلع إليها نيكولاس. وكأنها شعر بأمعانها النظر إليه.

ولحغم عندما رأى التعبير المتوتر على وجهها:

«أتردين الانصراف الآن؟»

تلفتت مادلين حولها في عجز. وقالت:

«حسناً. لا تدعني أصرفك عن حديثك. فني وسعي أن أجد سيارة أجرة بسهولة».

كانت تشعر في داخلها بأن عليها أن تسرع بالفرار. إذ بدأ الذعر ينتابها. وهي

تعرف ذلك. ولكنها كانت عاجزة عن أن تمنع نفسها.

فقط نيكولاس جيبته. ورسم حاجباه المستحيان على بعضها تقدم غاضباً.

ورده قائلاً ببرود:

«إن يكون هذا ضرورياً. هارفي. هل لك أن تشرح ليليموت كل ما

يتعلق برأس الموزع الجديد».

هز هارفي كتفيه قائلاً:

«أجل يا نيكولاس... هل أراك في الصباح؟»

«بالأكيد... سأذهب إلى المكتب مبكراً. فلا بد من الذهاب إلى المطار بعد ذلك

لتقابلة ماري».

واقفه هارفي وهو يتسم ابتسامة عريضة ويغمز بعينه لمادلين. ولكنها

لم تكن في مزاج يسمح لها بتقدير دعائته. لم تكن ثمة دعابة في هذا الموقف كما

تشل في ذهنها.

دهش آل ماسترسون وهم يرونهما يتصرفان معاً. ورأت مادلين أن

لوسي ماسترسون بدت حقوة على نحو واضح وهي تودعها. اتخذت من قبل

سلوكاً غريباً إزاء نيكولاس، ولكن من الواضح أنه مهما كان تفكيرها، فلم يكن نيكولاس يبدي أي اهتمام بها.

سرت مادلين عندما وجدت نفسها معه في الخارج. ارتدت معطفها في القاعة، كما ارتدى نيكولاس معطفه. وكانت السياه تظفر بفرازة وهي يسرعان عبر الفتاة إلى حيث كانت تقف سيارة صالون بيضاء منخفضة. كانت أيضاً من طراز شربان. ولكن من نوع آخر يختلف عن السيارة الحمراء.

ساعدتها على الدخول ثم التف واندس بجوارها، وكانت المقاعد واسعة لاهرة ومرجحة للغاية. وشعرت مادلين بنفسها تسترخي وتستند في كسل إلى ظهر مقعدها، وكانت باقة معطف نيكولاس مرتفعة، وبالرغم من أنه أدار المحرك، إلا أنه انفتحت إليها قبل أن يتحرك بالسيارة. وخطر لمادلين عندئذ أنه رجل بالغ الوسامة، وقفز قلبها إلى حلقها، وتساءل نيكولاس فجأة:

«ماذا قلت إنك ستركبين سيارة أجرة؟»

انتهضت مادلين من هذونها، وردت وهي تشعر بعصبية مثل قطرة صغيرة:

«رايتك منهنكاً في الحديث، ولم أشأ أن أزعجك.»

يذا عليه الشك، كان قد أدار مفتاح النور الداخلي الآن، وكانت مادلين تدرك أنها تبدو مذنبية للغاية، فصاحت:

«حسناً، بصراحة أنا مجرد أرملة عادية لا تدعي الجمال، طابئة أوشكت أن تكون كبيرة، فأني اهتمام يمكن أن أتبره فيك. أنا لست من طرازك على الإطلاق.»

هو نيكولاس كنفه بشكل غير ملحوظ تقريباً، ثم أطفأ النور وتحركت السيارة بسرعة عبر طريق الخروج إلى طريق أوتريوري، وتساءلت مادلين ما إذا كانت ستعود إلى طبيعتها من جديد، وتساءل نيكولاس ببطء:

«ماذا تخيلين أنني أهتم بك؟»

شعرت مادلين كأن ركبتيها تهتران، وقتت ألا يلحظ ذلك. كان أقل ما يقال في عبارته أنها تنير الارتباك، ولم تعرف كيف ترد عليها، فقررت أن تتجاهل سؤاله، وقالت:

«أسكن غير بعيد من هنا، عند المتعطف الثاني على يمينك. إنه في الحقيقة قريب انغلسايد تماماً. وإذا وقتت في نهاية الطريق فني وسعي أن أمشي بسهولة»

لم يرد، ولكن السيارة انعطفت نحو الحدائق ومضت، فقالت مادلين بصوت خفيض:

«ها هي الشفق.»

فأوقف نيكولاس السيارة فوراً. وكانت الحدائق تبدو مهجورة، والأمطار جعلت الناس يؤثرون البقاء في دفة منازلهم. وتلصقت مادلين حقيبتها يدها وتقاها في ارتباك وهي تستعد للخروج، ولكنه قال عامداً:

«إنك لم تردني على سؤال.»

سرت مادلين لأن النور لم يكن مضاء في هذه اللحظة. كان الظلام ودوداً، غير كاشف، وكانت موقفة بأن وجهها أصبح في حمرة الطماطم.

«كلا... هل تتوقع رداً؟»

قال وهو يلتفت نحوها:

«بالطبع، أريد أن أعرف.»

أيقنت الآن بأنه يدرك تأثيره عليها. وكان قربة منها يسلبها أنفاسها ويتعش كيتها. ورغم أنها أحست بأنه يتعين عليها أن تظهر نحوه القضب، إذ كان كل شعورها هو الاحساس بأنها تنوق إلى أن تكون أكثر قرباً منه، وما لبثت أن قالت وهي تحاول بغير نجاح أن تنصفي على الحديث سمة أخف:

«أعتقد أنك تداعبني...»

قال وهو يبدو مسروراً:

«كلا، إنني لا أدعبك.»

لم تكن تحلم أبداً بأن يكون ثمة رجل على هذه الدرجة من الازعاج. ولم يسبق لها أبداً في حياتها أن عاجلت موقفاً كهذا. وكانت حياتها آمنة في كثير من النواحي. أما نيكولاس فينتال فكان رجلاً آخر مجهولاً تماماً، ما لبث أن غمغم قائلاً:

«أخبريني، هل أنت خائفة؟ هل هذا يسبب ارتعادك؟ ماذا كان عارفي يقول لك؟»

مد ذراعه عبر ظهر المقعد خلفها وأمسكت أصابعه بكتفها، فأوقفت الرعدة التي آلت بها:

«لا... لا شيء...»

قالت ذلك وهي تنلعثم، وقد اشتعل كيانها كله بالمعاطفة، عاطفة أثارها لمسة يده، وقال نيكولاس وهو يحدق في جانب وجهها على ضوء مصباح الشارع :
«إنني موثق أنه قال شيئاً»

وكان قد أحصى قريباً منها على نحو استطاعت معه أن تشم رائحة الرجولة النقية المحيط بها. كان يتجدها عمداً، ويجعلها تدرك كيانها كامراً، فأعجبت بحرارة في كل جسما :
«يجب أن أنصرف...»

قالت ذلك بحزم، ووضعت يدها على مسكة الباب، فالتفت نيكولاس إلى جوارها ومنعها من فتحة. لم يكن يتوهم أن يتركها تنصرف هكذا. ففي فترة قصيرة استطاعت أن تثير في نفسه مشاعر كان يظنها خامدة. غمغم في رقة :
«ليس بعد، أريد أن أعرف متى أراك ثانية»
فحدثت مادلين فيه وتساءلت :
«هل أنت جاد؟»

فقطب جبينه للحظة، وقال :
«أنا جاد بالطبع... هل تخيلت أن أصحابك إلى البيت ثم أخرج من حياتك... بهذه البساطة؟»

«لا أعرف... ربما تخيلت أنني...»
«سهلة؟ لم أفكر في ذلك لحظة، متى إذا؟»
«لا أستطيع أن أفكر لماذا تريد أن تراني...»
ابتسم في شبه سخرية وقال :
«ألا تستطيعين... ربما... فأنت امرأة سبق لها الزواج تدين ساذجة على نحو لا يصدق.»

قالت مادلين، وفي نبرة صوتها ما يوحي بحرج شعورها :
«أشكرك...»

«هذا إظهار من نزاح كثيرة... هل تعرفين أنك امرأة مرغوبة؟»
ارتعدت مادلين وقالت وهي تتنهد :

«أنا مجردة ربة بيت عادية، مضطرة إلى أن تعمل»
«ليس بالنسبة إلي...»

قال ذلك وأصابعه تلوي طيبة من شعرها العنبري، وأردف قائلاً :
«هيا يا عزيزتي... مساء الغد إذا»

بدأت مادلين تعيد ضغوية في المنطق، وقالت :
«كنت أظن...»

«ولم لا؟ لا تقاومي يا مادلين. ليس هذا ضرورياً بينما أريدك أن تأتي وأعلم أنك تريدين أن تأتي. الأمر هكذا بهذه البساطة، إنك لمضطربة بسببي كما أنني مضطرب بسببك.»

حدثت فيه قائلة :

«أنا... أسيت لك الاضطراب؟»

كانت عيناه مظلمتين لا يمكن قراءتها، ولكنها أحسّت بالقوة وراء كلماته، وتقلصت أصابعه بإحكام على كتفها لحظة، ثم أطلقها، فغمضت وهي تشعر بمقاومتها تنحسر :

«ربما لا توافق ابنتي على ذلك.»

بدأت في صوته الغطرسة من جديد :

«سيكون هذا شيئاً... اسمعي... ساني لأصطحبك في الساعة والنصف، اتفقتا؟»
أخبت مادلين رأسها، وكانت أعجز من أن ترفض :
«أوه... لا بأس...»

«جسناً...»

وتناول لحظة من شعرها وجذب رأسها إلى الخلف ونظر في وجهها وغمغم :
«كوني في المربع تماماً.»

فرجت مادلين شففتها وهي تحدق فيه، فقال وهو يش :
«لا تدعيني أملك يا عزيزتي... وإلا فلن أتركك تذهبين.»

جذبت مادلين رأسها بعيداً عنه وانسلت من السيارة في حركة واحدة ولدهشتها وجدته يتسلل بدوره، ووقفاً معاً لحظة تحت النظر وغمغم : «أنت وقد ذهبت الغطرسة عنه تماماً»

«لا تسي...»

«كأن هذا في استطاعتى»

قالت ذلك هامة في عجزها ثم جرت بسرعة إلى البناية.

٤ - الجناح

كانت ديانا تجلس في مقعد ولير يستدين وتقرأ عندما دخلت مادلين
فتطلعت باسمه إلى أمها:

«هل العم أدريان معك؟»

خلعت مادلين معطفها المبلل قبل أن ترد: وكانت لا تزال تشعر برعشة وتجد
صعوبة في الحديث والتصرف. وكان شيئاً مكثراً حدث. أجابت ببطء:
«لم آت إلى المنزل مع أدريان يا حبيبتي. غادر الحفل قبل قليل ليرافق السيد
هيدريشتون إلى بيته. وجئت أنا مع شخص آخر».

هذا الشك على ديانا وتساءلت مادلين: وإحساس الذنب يساورها عما
ستظنه ديانا لو قرأت أفكار أمها في هذه اللحظة. تساءلت ديانا على
الفور:

«من هو؟»

فبسطت مادلين شعرها بعصبية وقالت :

«السيد فيثال يا حبيبتى»

نظت ديانا جبينها. كان الاسم مألوفاً بالطبع : إنه اسم الرجل الذى يمتلك

المصنع الجديد. بدت مذهولة.

«فيثال ! هل تعين صاحب المصنع»

«صحيح»

قالت مادلين ذلك وهي تأمل أن تكون ابتسامتها عسرة. ثم أردت :

«البيت هذه عفاة» .. هل تناولت عشاءك»

ولكن ديانا لم تترد على سؤالها بل نهضت قائلة :

«هل تشاجرت مع العم أدريان يا أمى»

أخبر وجه مادلين وقالت :

«الطبع لا. لا تكونى سخيفة. أنا لست مسؤولة أمام أدريان عن تصرفاتى

أليس ذلك»

بدأ التمسك على ديانا أكثر من أى وقت آخر. كان هذا أمراً غريباً على قدر

علمها. فلم يسبق لأمر أن خرجت فى إحدى الأمسيات مع رجل وعادت مع رجل

آخر ثم إن العم أدريان على قدر ما تذكر ديانا هو الرجل الوحيد الذى

كانت أمها تخرج معه متشوقة إليها. فما لبثت أن تساءلت بأدب :

«هل استمعت بولتك إذا»

قالت مادلين فى رد غير كاف :

«أوه... نعم... كان ذلك مثيراً للاهتمام... وكان هناك عند كثير من الأميركيين

كذلك»

«هذا السيد فيثال إنه إيطالى بالطبع»

«بالطبع لا. يعنى هذا أننى أعرف الكثير عنه. ولكننى أظنه كذلك»

«أوه»

مرت وأبصارها لم تكن قد فهمت هذا كله. ولكن مادلين قررت أن تغير

الموضوع. أما بالنسبة إلى موعد الليلة التالية. فكان ما تقشده هو كيف تطرح

هذا الموضوع بدون أن تسبب مزيداً من الجرح. وقالت وهي تدخل المطبخ بسرعة

لتصنع قهوة العشاء :

«أرى أنك غشيت شعرك»

«نعم...»

قالت ديانا ذلك وهي تلقى بنفسها فى المقعد من جديد. كانت لا تزال تفكر

فى تصرفات أمها. وإن كان واضحاً أن مادلين لا تريد أن تتحدث بشأنها.

وخطر لديانا أن أمها تبدو مختلفة على نحو ما. كأنها هي أصغر سناً وأقل ثقة

بنفسها. وفقرت ديانا بما رآته. ترى ما شكل هذا الرجل الذى رافقها إلى

البيت؟ أهو شاب أم مسن؟ ولماذا قرر أن يرافق أمها؟ إنه لا يمكن أن يكون مهتماً

بها. بلعت ديانا ريقها بصعوبة. كلاً، إنها بالتأكيد تصنع من الحبة قبة. إذا

كان هذا الرجل يسكن فى اليلدة فمن المعقول أنه عرض أن يصطحب مادلين

فى طريقه.

تجاوزا وقت صجوها الصباح التالي. تأخرت مادلين عن المدرسة وخشيت

مقابلة أدريان بعد ما حدث الليلة الفائتة. من المحقق أن يطلب تفسيراً

لتصرفاتها. وليس لديها مبرر واحد تقدمه. وليس فى وسعها أن تقول إنها ذهبت

إلى البيت مع نيكولاس فيثال لأنها شعرت بانجذاب مباشر نحوه... ثم إنها لم

تفكر ديانا بعد عن أمسية اليوم... حقاً أصبحت الحياة أكثر تعقيداً.

جلست إلى مكتبها وبدأت تكتب باجتهاد على الآلة الكاتبة. كانت الصغوف

تبدأ فى التاسعة والنصف. ولكن التلاميذ كانوا يجتمعون فى القاعة قبل ذلك

لفسلة الصباح. وكان أدريان يتقدم المصلين. ولم يكن يعود عادة إلى مكتبه

إلا بعد الحصة الأولى... إلا أنه اليوم عاد مباشرة بعد الصلاة. كانت مادلين

منهمكة فى الجداول التى تركها لها فى المساء السابق. وكانت تأمل الاقتصار

معها بصراحة للمسائل الخاصة إلا فيما بعد. ولكن للأسف خاب أملها. إذ جاء

أدريان مباشرة إلى مكتبها. وقال :

«حسنًا... وصلت إلى المنزل بالسلامة إذا»

رسمت مادلين على شفيتها ابتسامة وقالت :

«بالطبع. كانت تلك الأمسية تبعث على الاهتمام. أليس كذلك»

قال أدريان بشيء من السخرية :

«إلى حد كبير...»

وهنا قررت مادلين أن تواجهه، قالت :

«والآن، اسمع، ليس من حقي أن تنتقد تصرفاتي.»

قال أدريان : في غضب وازدراء معاً :

«إذا كانت علاقتنا مجرد علاقة عمل، وهي ليست كذلك، فإنني أشعر بأن من

واجبي أن أحذرك فيما يتعلق بـ فيتال.»

فحدثت فيه مادلين قائلة :

«تخبرني.»

«نعم أحذرك، نيكولاس يا مادلين رجل خبير بالنساء، وهو ليس بالرجل

الذي يمكنك أن تلهي معه. قدعيه يقصر نفسه على أناس من طرازه، لن يعترضوا

على تصرفاته.»

«أوه، حقاً يا أدريان... إن السيد فيتال لم يفعل أكثر من مرافقتي إلى

البيت...»

«مرجاء... ولكن كان يمكنه أن... هل تقول... يضايئك.»

كادت مادلين أن تضحك :

«يمكنه ماذا؟ يا له من تعبير بال يا أدريان، بالاضافة إلى أنني لا أعتقد أن

مستر فيتال يحتاج إلى استخدام هذه الأساليب بخصائصة الهدية.»

تصلبت كتفاً أدريان وقال :

«يا عزيزتي مادلين، أعتبرك دائماً امرأة عاقلة، امرأة أود حقاً أن تشاركني

حياتي. ولكنك تغيرت فيما يبدو منذ ليلة أمس إلى تلميذة بعيدة عن روح

المسؤولية، وأنا أشعر بخيبة أمل عميقة لذلك.»

«ولكن لماذا؟»

«لأنك رغم زواجك إذ كان هذا الزواج يبدو لي غريباً، فكنت صغيرة جداً، وإذا

افترضت أنه كانت لك أسباب للزواج من جو - ولا أريد التدخل في شؤونك

الخاصة - فإنني لا أعتقد أنك خيرة بأساليب الرجال. نيكولاس فيتال يختلف

تماماً عن جو، الذي يبدو أنه وضعك على قاعدة وأخذ يدك من بعيد كما

يقولون. إنك تبدين وكأن أحداً لم يمسك. لك مظهر يريه ما زلت أعجب به.

أعرف أن لك طفلة، لكنني لا أعتقد أن الهوى قد مسك من قبل، وأعرف أن

فيتال جذاب من الناحية البدنية، ولكنك لا تدركين الميول الحيوانية الفجة

التي توجد في بعض الرجال.»

قاطعت مادلين بحماسة، وهي تحس بالخرج البالغ :

«أرجوك يا أدريان... لا تستمر، لا أريد أن أسمع المزيد...»

قال مرافقاً وهو يقطب جبينه :

«أنا مؤمن أنك لا تريد... الأمر الذي يثبت أنك تحسبن أنك تعرفين ما تفضلين.»

«ولكن ماذا أفعل؟ جئت معه فقط إلى البيت، أليس كذلك؟»

«وهل ستقابلينه ثانية؟»

هزت كتفها بطريقة عرضية، على قدر ما استطاعت، وغضمت في ارتباك :

«لست أدري...»

نظر إليها أدريان غير مصدق، ولكنه لم يعارضها، قال :

«مادلين... يا عزيزتي... لا أريد أن أراك مثالة. كل اتهامي من أجلك... وأنت

تعرفين ذلك.»

تهدت مادلين ومدت يدها إلى حقيبتها، وأخرجت علبة سكاثرها وأشعلت

واحدة ببطء. كان كل ما قاله أدريان يدور في ذهنها، وكان كثير مما قاله

صحيحاً. هل هي على كل هذه الدرجة من السذاجة؟ وهي بدت عرضة للانتقاد

على نحو مضحك؟ في أي حال، حتى نيكولاس فيتال نفسه قال إنها ساذجة.

والآن، فإن فكرة الخروج معه هذا المساء بدأت تخوم في الأفق على نحو مفرح.

أليس الأفضل الاتصال به وإلغاء كل شيء الآن؟ وإذا صدق أدريان تماماً

بشأنه؟ إنها تعرف أنها لن تستطيع الاستجابة إلى موقف كهذا كما يتوقع منها أن

تفعل. إنها ليست متعة ليلة سريعة الزوال. بل إنسانة جادة في قرارة نفسها.

ليس في نيتها أن تنغمس في وضع أحسن معها بداً مثيراً في وقته. وبينما هي تفكر

في هذه الأمور، عادت إليها ذكريات جو، لطفه ورقته وحبه الذي وجهه لها

بانكار ذات في الوقت الذي لم تكن تبادل حياً بحب. وبفريزتها كانت تعلم أن

نيكولاس فيتال سوف يأخذ منها من حيث الحب والهوى بقدر ما يعطي. وإذا

فلا ينتظر أي منها شيئاً زائداً من الآخر... قالت وهي تنطلق إلى ساعنها :

«إنها التاسعة والنصف... وفصلك ينتظرك»

تهدد أدريان في صبر تافد، وقال :
«أوه، حسناً... سنحدث فيما بعد»

لم تتطلع إليه مادلين وهو يقادر الغرفة، بل عقدت عزمها على ألا يكون هناك حديث آخر اليوم. نالت منه ما يكفي ولا تستطيع أن تأخذ المزيد.
عادت ديانا إلى البيت هذا المساء قبل مادلين، وكانت قد أعدت المائدة قبل أن تدخل أمها. وكانت تبدو وعودة المظهر على نحو كاف، وقد نسيت فيها يبدو كل ما يتعلق بخاتمة الأمر التي لم تحسم وقت مادلين أن تظل ديانا على هذا المظهر الردود عندما تخبرها بأنها ستخرج هذه الليلة... تساءلت ديانا وهي ترقب أمها تشعل سيكارة :

«هل قضيت يوماً طيباً؟»

ردت مادلين في ارتباك :

«إلى حد معقول... هل يضايقك يا ديانا أن أخرج هذا المساء؟»

خرجت الكلمات من فمها سريعة وتركت ديانا في حيرة :

«مخرجين؟ تعين مع عمي أدريان؟»

«حسناً، كلا... ليس بالضبط... مع السيد فينتال»

بدأ الارتباك على ديانا، ورددت صدى كلمات أمها :

«السيد فينتال»

أومأت مادلين برأسها، وسقط قلبها وهي ترقب تعبيرات وجه ديانا. لم تكن ديانا لتسلم بهذا الأمر بلطفة على نحو لطيف، وتساءلت إذا كانت نظرتها لاقتها في الماضي قد أسست بمقالة التعقل، إنها لا تزال صغيرة في أي حال. والنساء في سنها يخرجن مع الرجال، بعضهن أرامل وبعضهن غير متزوجات وحتى بعضهن متزوجات ومع ذلك يخرجن مع رجال آخرين. وعندما تكبر ديانا وتتزوج فقد لا تشعر بأنها مضطرة إلى أن تضع أمها موضع الاعتبار ولعلها عندئذ تفهم وضع أمها... هتفت ديانا الآن :

«ولكن يا أمي، إنك لا تكادين تعريفته، وهو ليس انكليزياً...»

قالت مادلين وهي تسحب نفسها من سيكارتها :

«هذا صحيح»

بلغت ديانا ريقها بصعوبة، وأجر وجهها كثيراً، وبدأ عليها الضيق

البالغ... فصاحت على نحو طفولي :

«ولكن لماذا؟ لماذا؟ عمي أدريان لن يوافق... أنا مؤقتة من ذلك»

هزت مادلين كتفيها قائلة :

«لا تهتاجي هكذا يا حبيبي، العم أدريان لا صلة له بالموضوع، إنه مجرد

صديق، وليس هو بجاريس»

«إنه يريد الزواج منك»

قالت مادلين في صبر :

«وأنا لا أريد الزواج منه... إنه كبير السن... مصيبوب في قوالبه على نحو مفرط»

«إنه ليس أكبر مما كان عليه أبي...»

تهددت مادلين قائلة :

«ربما... ولكن هذا لا يغير الحقائق»

«وهذا السيد فينتال... هل يشبه أبي؟»

«كلا... على الإطلاق...»

صاحت ديانا في عناد :

«أخبريني إذا عن شكله... من حق أن أعرفه»

«حسناً، إنه لطيف جداً...»

قالت مادلين ذلك ببطء، وكان من الصعب أن تصف نيكولاس بدون أن

تبدو كأنها تجاوزت الحد، كان بالغ الحيوية، بالغ الثقة بنفسه، بالغ التفكير

«هل هو شاب أم شيخ؟»

قالت مادلين ساهمة :

«حسناً، أظن أنه أكبر مني سناً»

قالت ديانا في ازدراء :

«هو كبير إذا...»

لم ترد مادلين، فقد افترضت أن تبدو كبيرة السن لديانا، ولم تكن هناك

فائدة من الجدال معها. ولم تشأ لها أن تتأبها لوبة غضب كما حدث لها في

الماضي... قالت وهي تحاول أن تبدو مقتنعة:
«أنا موقنة بأنك ستحبيني...»

فردت ديانا على الفور وهي تنصرف في إبهاء إلى المطبخ:
«وأنا موقنة بالقدر نفسه أنني لن أحبه.»

أكلت مادلين قليلاً جداً من الطعام الذي أعدته هذا الصباح. لم تكن جائعة، كما أنه من الأرجح أن يتوقع منها نيكولاس تناول وجبة. وغدت لو أنها لم توافق على الخروج معه، فقد كانت ديانا في مزاج كئيب، ولم تتحدث منذ حوارهما قبل الأكل. فإذا كانت هذه الفورة ستحدث في كل وقت تقترح فيه الخروج، لعل الأفضل أن تتخذ سياسة المقاومة الأقل. وأن تبقى.

ولكن عندما حان وقت الاستعداد للخروج، كانت قد عقدت عزمها على أن تبدو في أفضل حال. فارتدت ثوب كوكيتيل من الدانتلا السوداء كان لديها منذ أعوام. كان ثوباً غالياً في الأصل، وجعلته تخصيلته البسيطة وانخفاض فتحة عند العنق واتساعها، لا يبلو مرور الزمن. ووضعت سلسلة اللؤلؤ الوحيدة التي تملكها حول عنقها. كان جو قد اشتراها لها منذ عشر سنوات كهدية في مناسبة عيد زواجهما، ورغم من أنها كانت زائفة، بدت وكأنها حقيقية.

ارتدت العطف الصوفي الذي كان بلون الكريمة مرة أخرى، وأوشكت أن تكون مستعدة للنزول لمقابلته في الساعة وخمس وعشرين دقيقة عندما دق جرس الباب.

قررت ديانا البقاء هذا المساء، وكانت في غرفة الجلوس فتقدمت لتفتح الباب وهي تتساءل من يكون الطارق. وظهر أمامها رجل طويل عريض المتكبر، كان أسمر البشرة، بليس سترة من الجلد فوق حلة غامقة. وكانت له عينان هما أكثر ما رأت زرقاً في حياتها بل بدتا أكثر زرقاً بالمقارنة إلى بشرته التي صبغتها الشمس وكان شعره أسود مجعداً يميل إلى الزرق، وكانت أهدابه طويلة مقوسة أيضاً. وكان يبدو من طراز فريد في بلدة مثل أوتربري حيث كان المال والوسامة لا يجتمعان. قد هشت ديانا قائماً. هل يمكن أن يكون هذا هو الرجل الذي ستخرج معه أمها؟

«نعم...»

قالت ذلك بصوت بارد خفيض، وكانت لا تزال تأمل أن يكون شخصاً آخر تماماً. وما لبث الرجل أن ابتسم لها قائلاً:

«هل أنت ابنة مادلين؟»

«هذا صحيح، أنا ديانا، هل أنت السيد فيثال؟»

وقبل أن يرد، جاء صوت مادلين يسأل عن الطارق. وخرجت من غرفة النوم ترتدي جواربها، وشعرها يلتف على وجهها على نحو رقيق. وعندما رأت نيكولاس تغير وجهها، وشعرت بمحدثها تحيish بسرعة، فغضبت:

«أهلاً... هل لك أن تفضل؟»

انتحلت ديانا جانباً، وهي لا تزال تشعر باندهار. كان نيكولاس فيستقل مختلفاً تماماً عن كل ما تصوره من قبل. فلم تتخيل في أغنى أحلامها شخصاً مثله يتم بأمرها. وكان أبعد ما يكون عن كبير السن. وشعرت بنوع من الذعر الذي يورث السقم عندما تخيلتها معاً. إن هذا الرجل لا يشبه العم أندريان، الذي كان يعامل والدتها بالضبط كأحد المعارف القدامى. أما هذا الرجل فالأرجح أنه يطلب علاقة أشد وثوقاً ووداً. أفزعته الفكرة وقتت خالصة أن يحدث شيء يمنع تواعدهما.

تقدم نيكولاس إلى داخل المسكن، وأخذ يتفحصه بسرعة. وتطلع حوله باهتمام، ومظهره يوحي بأنه يقر الديكور الأزرق والأبيض. كان الديكور لامعاً، حديثاً، ما لبثت مادلين أن قالت: وهي تسرع بوضع قدميها في حذائها:

«هذا هو السيد فيثال يا حبيبتي ديانا...»

قالت ديانا بتعظيم:

«أعرف ذلك...»

وهنا نظرت مادلين إلى نيكولاس متوسلة فقال:

«أمازلت في المدرسة يا ديانا؟»

هزت ديانا كتفيها وأجابت بلا اكترات:

«إنني أدرس في الكلية التجارية.»

«وهل تحبينها؟»

فاستدارت وارقت بتشاغل واسترخاء على أحد المقاعد، وقالت:

«أحياناً...»

بدأ نيكولاس متفكراً لم يفقه ديانا ولا اجتذبه سلوكها. وكانت تحتاج في رأيه إلى درس في السلوك. وشعر بأنه يريد أن يكون الشخص الذي يلتقيها هذا الدرس. وكانت مادلين تبدو متزعجة متضايقه، فأراد أن يعطي ديانا شيئاً مما يدور في عقله. فمهما كانت سمعته فإن ديانا لا تعرف شيئاً عنها. ولا يد أن تعلم أن أمها امرأة شريفة نزيهة. امرأة هنا ليس نصف ابتسامة. إن مادلين نفسها أكبر بقليل من مجرد فتاة. أحس بهذا الشعور المباشر عندما رآها. ولكنه ويخ نفسه لأنه سمح لشاعره بأن يجاري أفكاره. وما لبث أن تطلع إليها وعيناه ذافقتان خورتان. وقال:

«هل أنت مستعدة؟»

شعرت مادلين بوجعها تلتقيان باللون الآخر. قالت:
«نعم، أنا مستعدة...»

ثم التفتت إلى ديانا قائلة:

«هل أنت متأكدة بأنك مستعينة على ما يرام؟ فلن أتاخره
«سأكون على ما يرام...»

قالت ديانا ذلك وهي لا تكاد ترفع بصرها عن المجلة التي تطلع إلى صفحاتها. وأردفت:

«لا تأبهي بالعودة سريعاً. في وسعي أن أضع نفسي في الفراش.»

غضت مادلين شفقتها. كانت ديانا تحاول صادقة أن تؤذي مشاعرها. ونجحت في ذلك. وكادت الأمسية تقس قبل أن تبدأ.

نزلا إلى سيارته. كانت دافئة ومريحة. وبينما كان يقودها بخبرة غير المبتدئين غاردينز. ثم إلى الطريق الرئيسي. كانت مادلين تحاول أن تسترخي وتضي كلمات ديانا القاسية. ولكن صمتها أغضب نيكولاس. فقال في استياء:
«أظن أنني لست محبوباً من جانب انتك... لماذا؟»

هزت مادلين كتفها وقالت:

«ديانا لا تفهم لماذا لا أتزوج أريان سنكلير. وفيما يتعلق بها فإن أي إنسان يجاوز الخامسة والعشرين يكون قد دخل طور الخوف. ويكفي أن يوافقها أي

رجل في هذا الشأن حتى يلتقي منها الفيل.

ثمهم نيكولاس:

«فيما عداي، لماذا؟»

«إني، أوه، لست أدرى أنا أمها.»

ابتسم لها قائلاً:

«لا تبدين في سن تكونين معها أملاً أحده.»

«ربما، ولكنني أمها، لعل هذا جزء من المتاعب.»

غيراً أوتريزي في السيارة إلى فندق ستاج. وتذكرت مادلين أن ابنته

وصلت اليوم من إيطاليا. وتساءلت إذا كانت ستناول معها العشاء.

أوقف السيارة ونزلا سائرين إلى الفندق. واصطحبها نيكولاس إلى قاعة

المقهى حيث طلبا بعض الشراب. قال:

«إنك تبدين جميلة جداً يا سيدة سنكلير.»

«أشكرك يا سيد فيثال.»

شعرت بأنها تسترخي كلية. كانت تستمتع بوقتها. إلا أن ذكرى ديانا

أفسدت قام متعتها. وابتسم لها نيكولاس وقال وهو يلوي قمعه:

«أنا مسرور جداً لحضورك.»

فقطبت جبينها قائلة:

«هل ظننت أنني لن أحضر.»

«ظننت أنه ربما يكون هناك بعض الضغط من أحدهم لتعك، الصديق سنكلير

على سبيل المثال، إني متدهش لأنه لم يعترض طريقك.»

ضحكت مادلين في رقة وقالت:

«أوه، إن أريان قال كلمته بالفعل. وقد نصحتني ألا أقابلك ثانية.»

«وهل من حق أن يتصالحك؟»

«ليس تماماً...»

«هذا يتركنا إذاً إلى ديانا. وعندما أفكر في الموضوع أرى أن مشاعرها

مفهومة.»

تطلعت إليه مادلين متسائلة:

«ديانا في سن تعرف معها بما فيه الكفاية كل شيء عن الاحتياجات البدنية للرجل والمرأة. وذلك على نحو يجعلها تعلم أننا منجذبان أحدهما إلى الآخر... وكانت دهشتها أنها وجدتني أخرجين مع رجل تتخيل أنه سيطارك الغرام.»

أحت مادلين رأسها لتخفي حرجها. ومضى قائلاً في رقة:
«الأمر يخيفها قليلاً. فهي لم تعتد مثل ذلك من قبل لترضى عنه. وإذا كان أدريان هو عينة لأصدقائك السابقين من الرجال، فإن هذه المشكلة لم تكن لتقوم أبداً.»

قالت مادلين ببطء:

«أدريان هو الرجل الوحيد الذي خرجت معه منذ مات جوي.»

«حسناً، هذه هي الصورة إذاً. الأمر مريبك بالنسبة إليها. ولين تعيدي ماريلا مثل ذلك على الإطلاق. إنها لا تشبه ديانا في شيء أبداً.»

«فهمت». والآن ما هي احتياجاتي البدنية بالضبط؟

قالت ذلك بخفة، فلمعت عيناه بالدمع، كأنها تعانقها. وغسغم في تراح، وهو يرقب تعبيرات الصدمة في وجهها:

«سأشرح ذلك فيما بعد.»

واقبته حديثها بعد ذلك إلى موضوعات أخرى، أقل خصوصية. كان نيكولاس يبدو رقيقاً مسلياً، وحكى لها عن منزله في روما، وعن عمله الذي ورثه عن والده. وكان قد زار بلاداً كثيرة فبدت مادلين مبهورة.

وغادرا المقهى إلى المصعد. وكانت قاعة العشاء إلى اليسار فبدت الميرة على مادلين. وتساءلت:

«إلى أين نذهب؟»

قال بدون اضطراب:

«إلى جناحي... أرجو أن تطمئني تماماً... سنتناول العشاء هناك، فهو ألطف بكثير.»

«أوه...»

قالت مادلين ذلك ثم ارتج عليها القول للحظة. وما لبثت أن أردت:
«ولكنني غير موقنة من أنني...»

تنهد وهز رأسه قائلاً:

«لا تكني مغالية، أنت تعلمين أنني لن أهاجمك.»

قالت خاضعة، وهو يرميها بنظرة غاضبة:

«إني أسفة.»

وصل المصعد، وبينما هما يصعدان تذكرت مادلين ماريلا فجأة. بالطبع.

ابنته ستتناول العشاء معها. هذا هو السبب في صعودها إلى جناحه. كان المعمر مفروشاً بالسجاد، واعتد بها عبر عدة أبواب حتى وصلا إلى جناح نيكولاس.

وكان رائحاً من الداخل على نحو جعل مادلين تشفق من كبر الدخنة، وما لبثت أن أدركت بعد قليل أنه خال. وكان نيكولاس قد خلع سترته بعدما أغلق الباب ووقف بجانبها مسروراً لانبهارها... وقال في صوت جاف:

«أرى أنه يروق لك.»

فاستدارت لتواجهه، وغسغمت وهي تيسط يديها:

«إنه أشبه بديكور الأفلام، إنني لا أكاد أصدق أنني هنا، هل أنا أحلم؟»

ابتسم نيكولاس قائلاً:

«كلا، اخلمي معطفك...»

بللت مادلين شفيتها بلسانها وقالت:

«كنت أظن أن ابنتك ستصل اليوم.»

«هذا صحيح، وصلت. لماذا؟»

«وأين هي؟»

أجاب وهو يتقلب جيئة وذهاباً:

«في غرفتها على ما أعتقد.»

وبينما كان يعبر الغرفة إلى حيث وضعت صينية متفنة الصنع عليها شراب،

ضغطت مادلين معدتها بيدها وقالت:

«لا أظن أنني أريد المزيد.»

خطا إليها وخلع معطفها عن كتفها ووضعها على أحد المقاعد، ثم التفت إليها

وكان الجد يبدو في عينيه.

«يا عزيزي، أستطيع قراءة كتاب مفتوح. إن ماريلا جناحها الخاص في

الدور الأول، ولو أقامت معي لشأجرتنا»

ومضى بها لمشاهدة غرف الجناح... ثم قدم لها هدية عبارة عن عصن صغير من زهور الأوركيد اقترح أن تثبته في ردايتها، إذ كان في لون شعرها، ففعلت وهي شاكرة مبهورة. ودخل ساقيان بعد ذلك بائدة الطعام. ووفقا للخدمة، وشعرت مادلين بالمرح لأنها أحست بها يرقبانيها. وأيقنت بأنها يدركان أنها لم تعتد مثل هذه الخدمة، فقدت شهيتها وأكلت قليلاً جداً من الطعام الفاخر. ومع ذلك شعرت بأنها متخمة.

وجلسا متجاورين على أريكة منخفضة، وسألتها عن والد ديانا، فقالت إنه كان رجلاً عادياً، فسألتها عما تخفيه بشأنه فارتعدت، وبدأت في غيبته نظرة حيوان متعرج يستعد للانقضاض... ولاحظ أنها متوترة، خاصة عندما أرادت الانصراف. وبدأت أصابعه تنسلل إلى شعرها المنسدل لتصلحه وراء أذنيها، فرجته ألا يفعل، ولكنه أخذ يدها وقبّلها. وقال لها ألا تخف، لأنه لن يؤذيها، وأدركت أنها مدعورة، وأنها ليست ندا له، أما هو فكان قادراً على تحطيم متاركة أي امرأة بمجرد قوة شخصيته. ولكنه معها شعر برغبة عتيقة في حمايتها، حتى من نفسها إذا ضعفت أمامه إذا لزم الأمر. وقد كان... قال لها إنه يشر، ويمكن أن يكون خطراً عليها، وعندما قالت له إنها لم تعد تخافه، وإنها تجده مثيراً، طلب منها أن تكف قائلاً:

«مادلين، أيتها البريئة، يجب ألا تنصري على هذا النوع إنه ليس بالأمر الصواب»

وقال لها إنه يريد بها كثيراً، ولكن ما يشعر به نحوها لم يسبق أن يشعر به لأحد قبّلها. وسألتها إن كان في وسعها أن ترفضه، فأحنت رأسها في يني صامت، قال برفق، وهو يبعدها:

«وهكذا أنا شهم للغاية، والآن لا تكوني حقا، سأصططيك إلى البيت»

وبينما كانت تستعيد معطفها، أخذ يراقبها... لم يسبق في حياته أن قابل امرأة هزته عاطفياً مثل هذه المرأة العتيقة. وعرف كثيراً من النساء منذ وفاة زوجته جوانا. ولكن مادلين كانت مختلفة، ولم يشعر بالرغبة في أن يكون قاسياً معها، أراد أن يعرف كل شيء عنها. وكان هذا أمراً جديداً بالنسبة إليه. وشعر

بغيرة غير مفهومة من ذلك المجهول جو، وتوعدا على اللقاء في الليلة التالية، واقترح عليها أن تحضر معها ابنتها كما سيحضر معه ابنته.

٥ - عاصفة العقل والقلب

شعرت مادلين في السيارة بالأسف على انتهاء الأمسية. وقد استمتعت بها كثيراً. وكان الافتراق عن نيكولاس يبنوها مثل فراقها عن جزء من نفسها. ووجدت ديانا لاثزال مستيقظة، تجلس في فراشها تقرأ وأخبرتها ديانا في شبه اتهام أنها اكتشفت بقاءها في السيارة نحو عشر دقائق، وسألتها مادلين عن رأيها فيه فقالت إنها لم تستطع الحكم عليه، وهنا أخبرتها بدعوتها، فقالت ديانا بعد تردد:

«حسناً، ولكن لا تتوقعني متى أن أطرب له دائماً، فالأرجح أنه يسلي نفسه على حسابي».

وأحست مادلين بأن ديانا تحاول عمداً معاداتها، ولما كانت تعرف أينتها خطر لها أن ديانا تأمل في خلق المتاعب باستجابتها إلى الدعوة. وفي يوم الأربعاء وجدت مادلين من السنجيل تقريباً أن تركز ذهنها على عملها، فاتصلت بنيكولاس تليفونياً خلال استراحة تناول القهوة في الصباح، وأبلغته بموافقة ديانا وبخافقها لكنه ضحك منها وطلب أن تتركها له.

ووصل نيكولاس في الساعة والرابع مساءً، وهو يرتدي بذلة زرقاء أنيقة، واصطحبها إلى الفندق ثم إلى جناحه مباشرة، وكانت مادلين ترتدي فستاناً من الجريسيه الأخضر، وديانا ثوباً من التيل الوردي، وتول تقديمها إلى ابنته ماريلا، التي كانت ترتدي بذلة من القطن الكحلية، وترفع شعرها الطويل على شكل كورونات حول أذنيها. وكانت تبدو مغلقة كثيراً عن الفتاة الشابة

غير المسؤولة التي تحدث عنها نيكولاس. كما بدت لديانا على غير ما كانت تتوقع، وكان الجو مكهرباً، وأدركت مادلين أن ذلك ما تتصوره فقط، ولكن وجود ديانا كان بمثابة نوع من الدراما الحادة، وثقت أن تبدو ديانا هادئة الأعصاب مثلما يبدو نيكولاس وماريلا.

وتناول بعض الشراب، وقالت ماريلا إنها تحب لندن، وأنها زارتها مراراً وتود أن تعيش فيها بعض الوقت على الأقل، فقال أيزها مداعباً:

«لا بد إذاً أن تتزوجي رجلاً إنكليزياً».

فهزت ماريلا رأسها وقالت بتأمل:

«أعتقد أنني سأزوج إيطالياً، الإيطالي رقيق جداً، ألا تعتقدن ذلك سيده سكوت؟»

شعرت مادلين بالخرج من صراحتها، وردت بهنق:

«لا أظن أنني أعرف الكثير عن الإيطاليين».

فقالت ماريلا مبتسمة:

«أتوقع أن تعرفي عن قريب».

وسألت ماريلا ديانا عن رأيها، محاولة اجتذابها إلى الحوار، فهزت كتفها بلا اكتراث، وقالت ببرود:

«لا أظن أنني أريد الزواج، وأعتقد أن العمل أهم من أن أكون جارية لرجل».

شعرت مادلين بتوتر أعصابها، قررت ديانا، قها يبدو، أن تكون صعبة المراس، وكانت على وشك أن تدلي ببعض أمارات الاستنكار والتوبيخ، ولكن نيكولاس رفع يده وألحى إلى الأمام في مقعده قائلاً، وهو يتسم ببطء:

«جارية لرجل! وماذا تعرفين عن ذلك يا ديانا؟»

اضطربت ديانا في مقعدها، وقالت في حجب:

«إنني أعرف أن معظم الرجال يتوقعون من زوجاتهم أن يكن رهن إشارتهم».

تسأل نيكولاس في سخرية:

«أفكرين في شخص بالذات؟ إن معظم الرجال الذين أعرفهم يقومون بدور نشط في إدارة بيوتهم والعناية بأطفالهم، وفي الزواج ما هو أكثر من مجرد العناية بالبيت».

جعلت ديانا أنها، لم تكن تريد أن تعرف شيئاً من آرائه. ثم قالت:
«في أية حال، أستطيع أن أفكر في عمل ماعو أفضل من مجرد الاستماع إلى رجل
يثير ملي بأفكاره».

أصبحت مادلين يهلع، ولكن نيكولاس رفع حاجبيه السوداوين فقط وبدأ
مهذباً، حتى عيناه كانتا تتألقان وكانت هناك ابتسامة تلوح على زاوية فمه، الأمر
الذي جعل ديانا تدرك أنها تبدو حياء... ومالبثت أن تطلعت إلى مادلين
وماريا، وبينما كانت أمها تبدو قلقة، كانت ماريا تبسم كذلك. ثم شعرت
فجأة بكراهية نحو الجميع وضغطت شفطتها معا بشدة.

وفشلت الأمسية، وأثر سلوك ديانا عليهم جميعاً، وشعرت مادلين
بالارتياح لانتهاء العشاء، وإمكانتهم الانصراف، وضحيتها لنيكولاس في
سيارته في التاسعة والنصف. وعندما وصل إلى مجمع الشقق أمام المنزل طلب
من ديانا أن تصعد لأنه يريد أن يقول كلمة لأُمها، فانصرفت بدون أن تعباً
بشكره على العشاء، وقالت مادلين في تعاسة:

«ياها من أسية لظيعة، لا أدري ماذا ستظن فيما الآن».

فوضع راحته على رأسها، وتطلع إليها مفكراً وقال:

«إن ماتت ديانا، ليس من شأنك. كانت مجرد خائفة ومضطربة بشأن أمور
لا تهمها، كما أنني لم أقدم عوناً كبيراً، أليس كذلك؟»

وطلب منها اللقاء مرة أخرى، فأهلته يومين لتحاول أن تجعل ديانا تفهم.
فوافقت على ذلك، وألقي إليها نظرة هوى ثم انصرفت... ووجدت مادلين ديانا
في الفراش متظاهرة بالنوم، فقررت أنه من الأفضل عدم إيقاظها وبده شجار
معيها، وأوت إلى الفراش صامتة بدون أن تلقي إليها حتى بتحية النساء.

وفي الصباح ذهبت ديانا إلى المدرسة بدون كلمة. وتساءلت مادلين لماذا
تتصرف ديانا هكذا؟ إنها لا تدرك إلا أنها هي ونيكولاس صديقان، وليس
هناك سبب لتفورها إلا الغيرة المحضة، الأمر الذي يجب تحطيمه، وفي المدرسة
أدّت مادلين عملها بطريقة آلية، وذهنها مشغول بذكرى عشاء الليلة
السابقة، وبينما كانت تتناول الطعام عند عودتها مع ديانا، تساءلت الفتاة:
«هل ستخرجين الليلة مرة أخرى؟»

«كلا... لماذا؟»

«إنني أتساءل فحسب، هل أنت غاضبة مني؟»

«ولماذا تتصورين ذلك؟»

بدت ديانا خجلة قليلاً من نفسها، وقالت:

«لست أهتم بشيء في أي حال، قلت لك إنه ليس في وسعي أن أتناول العشاء
معهم. إنهم ليسوا من طرازنا».

حدثت فيها مادلين بغيظ، وتساءلت في غضب:

«من هم طرازنا إذا؟ أظن أنك ستتحسين اسم أدريان هنا مرة أخرى».

وحسناً، أدريان على الأقل لا يسلي نفسه على حسابنا. لأراك تعتقدين أن
نيكولاس فيتنال سيكون له شأن جاد معك».

«أعتقد أنك فتاة أنانية قاسية. ولكن لا تخيلي أن ماتت لونه سيؤثر علي، إنني في
من تسمح لي بأن أتولى شؤوني بنفسى».

هتفت ديانا:

«إنك مصممة على أن تجعلي من نفسك حقاً».

أطبقت مادلين قبضتها، وكان شعورها الأول هو أن تصفع ديانا بشدة
فليس من حقها أن تتحدث إلى أمها بهذه اللهجة معها كانت مشاعرهما في هذا
الشأن، ولكنها بدلاً من ذلك نهضت عن المائدة وسارت إلى غرفة النوم وأغلقت
الباب، وتركزت ديانا وحدها. والواقع أن ديانا شعرت بأنها تجاوزت الحد،
ولكن كان ثمة شيطان بداخلها يدفعها دفعا.

وفي المساء التالي، وبينما كانت مادلين تستعد للخروج تساءلت إذا كانت
تتصرف بتهور وطيش وهي تخاطر بفقدان صداقة ابنتها من أجل رجل عرفته
لأقل من أسبوع فقط. ولكن شكوكها سرعان ما ولت عندما نزلت إلى لفاته،
وتوجهها بالسيارة إلى هاينوك، وهي قرية على مشارف البلدة. حيث كان هناك
لندق لم تدرك مادلين وجوده من قبل. وأوقف نيكولاس السيارة وإذا كان
يتفحص المنطقة قال لها إن من الأفضل ألا يكونا وحدهما ولكنها أشعرته
بطمأنينتها طالما أنه معها، وأخبرها أنه لا بد له من الذهاب إلى روما لعدة أيام،
وفي موقف عاطفي وداعي أخذ وجهها بين راحتيه وعانقها، وفي انتظار استجابتها

لده... أخذت يده ووضعتها على عنقها، فأحست بيوخز شيء في أوصيه، كان خافاً
منقوشاً مرصعاً بالزمرّد، فتساءلت :
«إنه جميل، هل أعطتك زوجتك إياه؟»
فهز رأسه قائلاً :

«جوانا وأنا تعارفنا قبل الزواج بشهور قليلة فقط، قابلتها عندما ذهبت إلى
الفرع الأمير يكي لشركتنا، كان والدها يدير الفرع في ذلك الوقت، وأحبتي
كنت عندئذ شاباً قابلاً للتأثر، ولم أدرك أن جوانا وجدت في فرصة لتجنيب حياة
اجتماعية دولية. وعندما علمت لم تكن مسرورة لذلك ولا مني على أنني حطمت
حياتها. وللأسف ولدت الطفلة قبل الأوان، وبينما كانت في دار النقاة أصيبت
بفيروس تركها ضعيفة جداً، ومالبثت أن ماتت بعد ذلك. وقد كنت نفسي بالطبع
على ذلك ولكن الزمن يشفي كل شيء، كما أن ماريًا نفسها كانت السبب في
استمرار حياتي.»

«إنني أسفة.»

«كان هذا منذ وقت طويل...»

قال ذلك ثم خلع الخاتم وأخذ بيد مادلين وسحب خاتم زواجها واستبدل به
خاتمته المنقوش، وعندما تطلعت إليه بدهشة قال :
«أنت أول امرأة تلبس خاتماً وهيئة لها عن حب، أما الخواتم التي كانت تلبسها
جوانا فكانت شيئاً آخر، وفي وسعك أن تقول إن أبي هو الذي اشترى جوانا
لي، كانت تنحدر من أسرة أرستقراطية في بومبوني.»

وقال لها إنه سيتصل بها يوم الاثنين من روما وأنه قد يذهب إلى فيلنتيا
كذلك، ولكنه سيتصل بها حينها كان، وأنه سيسافر غداً وقد يعود الأربعاء أو
الخميس، وطلب منها أن تلبس الخاتم في غيبته، فترددت ثم وافقت، وهي تشعر
بأن الأيام القليلة المقبلة ستكون بمثابة أعوام.

وكان نيكولاس يدرك ازدياد انجذابه إلى مادلين، وكم أصبحت هامة
بالنسبة إليه في مثل هذه الفسحة القصيرة من الوقت، أراد أن يعرب لها عن
شعوره، وأن يرجوها الذهاب معه، والزواج منه على الفور، ولكنه قرر عكس
ذلك، إذ يبدو الأمر تعجلاً من جانبه وقد تظن أنه يتصب لها شركاً، لا بد أن

ينتظر حتى يعود من إيطاليا، وشعر بأنه لم يعد يريد الذهاب، وأن اهتمامه الدائم
بعمله أصبح الآن ذا أهمية ثانوية، بالمقارنة إلى مشاعره نحو مادلين، إنه يريد
أن يفعل لها الكثير، وأن يربها أماكن كثيرة، ولكنه يريد أولاً أن يقول لها إنه
يحبها، وأن يسمع منها أنها تبادلته الشعور... وتركها عند باب الشقة وهو بعدها
بالاتصال في أسرع ما يستطيع، وأوشكت أن تيكلي وهي ترى أضواء سيارته
تختفي على الطريق الرئيسي، ولكنها لمست الخاتم فشعرت بأنها لم تعد خائفة.
وخلال الأيام التالية عاشت مادلين في فراغ، كانت تخرج منه عندما يتصل
بها هاتفياً، وقد اتصل بها بعد ظهر الاثنين وحدثها عن رحلته، وأنه يفتقد لها،
ولم تكن مادلين ذكرت شيئاً لديانا عن رجيل نيكولاس، ولو كانت
ديانا لاحظت الخاتم قائماً لم تشر إليه، إلا أنه كان هناك مقال كبير في
الصحيفة عن سفر نيكولاس، وأدركت مادلين أن ديانا لم تكن تفتوتها
قراءته.

وفي يوم السبت جاء أدريان إلى الشقة ليسأل إن كان موعد العشاء
الأسبوعي بينهما لا يزال قائماً، وفعلت مادلين ولكنها ردت بالاجياب :
«نعم، إذا شئت...»

لمقطب جيبته قائلاً :

«أما زلت تقابلين هذا الإيطالي الملعون؟»

بدت الدهشة على وجه مادلين لأنها لم تدري كيف عرف أنها تقابل
نيكولاس، ولكنه قال بسرعة :

«أوه، رأيت ديانا في البلدة أمس، وقالت لي إنك تخرجين مع فيثال.»

امتقع وجه مادلين، وغصمت بفتور :

«ربما يكون في روما الآن...»

فراجع أدريان متعجباً وقال :

«في روما؟ هل عجل بالعودة هكذا؟»

«لا، عملاً هناك...»

«حسناً، سأحضر في الموعد المعتاد.»

«لا بأس، ولكن يا أدريان، لا أريد تكرار هذا الحوار، ولا أريد محاضرات، إذا

كما ستخرج فلنتجنب ذكر السيد فيقال :
واقفها أدريان ، واحز وجهه قليلاً ، وهو يجاهد ليقول بضع كلمات :
فعل تأخذ ديانا ذلك على محمل حسن :
فردت مادلين بصوت بالغ البرود :
« ألم تخبرك ؟ »

« إنها لم تهد متحسبة . »
« إنها ليست كذلك ولكنها لا تحاول أن تحبه . »

فقال أدريان بصوت جاف :
« إنها تحبه بقدر كاف فيما عشت ولكنها تعترض فقط على مآسيه محاولاتها
السخيفة للتعلم بشيائك . »
صاحت مادلين في دهشة :
« ماذا ؟ »

« إنني إنني بالطبع وبخفتها . »
« هل فعلت ذلك حقاً ، أم هل شجعته ؟ إنك حليفتها ، ولست حليفتي . »
تخبط أدريان جيئة ، وهو بأصبعه داخل يافته ، وقال :
« كانت هذه وقاحة منك يا مادلين ... »

فردت بحاراة :
« ولكنها لم تكن بلا سبب . »
« إنها ابتك يا مادلين . »

فصاحت في بأس :
« وهل تظن أنكم تسمحون لي بأن أنسى ذلك أوه يا أدريان ... انصرف الآن ،
ودعني وحدي أرجوك . »
فقال في هدوء :

« ديانا في حاجة إلى أب . »

فقال مادلين في غضب :
« ولكن هذا الأب لا بد ألا يكون أحد سواك . »
« ديانا تعتقد أنني أشبه أباها . »

تطلعت إليه مادلين والكلمات ترتفع على شفيتها ، كلمات كانت تعلم أنه
ليس في وسعها أن تنطق بها ، ومضى أدريان قائلاً بدون توقف :
« أخبرتني بشأته يا مادلين ، وليس في وسعي أن أفترض إلا أن ديانا مثلك ، لأن
جو لم يكن ، فباقلته عنه ، شخصية عاصفة . ديانا تحتاج إلى موجه ذي
لغوة ، نفوذ رجل اعتماد صحية الأطفال . »

هزت مادلين رأسها قائلة :
« ألا تياسى أبداً يا أدريان ، إنني لا أحبك ، ولا أريد أن أتزوج بسبب آخر غير
الحب . ألا تستطيع أن تفهم ذلك ؟ »
غام وجه أدريان ، وتساءل :
« أنتين مقابلة فيقال مرة أخرى :
فكادت تصبح بكلماتها قائلة :
« نعم ، نعم ، سأقابله . »

« ولكنك بصراحة لا تحمليته على محمل الجد ، أليس كذلك ؟ إنه يقابل خلال عمله
كله منات من النساء ، هل لديك فكرة عن نوع الحياة التي يحيهاها؟ والنساء
الروائي عاشرن ؟ »
« كف عن ذلك . »

« كف أفك ، لا بد لأحد أن يجعلك تتعقلين ، هذا الرجل له امرأة على الأرجح تنتظره
في موطنه في هذه اللحظة ! من أين لك أن تعلمي ما يفعل ؟ »
أعطت مادلين وجهه بأصابعها قبل أن تتمكن من ،
أدريان ويده على خده مذهولاً ، وانتاب مادلين ض
« هل أحد المفاعد ، وقالت في ضجر :
« واسطة يا أدريان . »

« مضي أدريان إلى الباب ببطء وتساءل :
« هل أنت موقنة أنك تريدن مقابلي هذه الليلة ؟ »
« هذا يدورف عليك ، أليس كذلك ؟ ماذا تظن ؟ »
« هل أنت على صواب ، إن لك حياتك تتولينها ولن أقف في طريقك بعد ذلك
أوه يا أدريان ... إنك في الحقيقة أصلح من أن تكون لي . »

بأدبها أدريان الابنسام ولا يزال خده مغمراً من أثر أناملها وقال في رقة وهو يخرج :

«الملك على حق»

وشعرت مادلين بأن الأمور أصبحت معقدة تثير الحزن والاكتئاب . وقتت أن ترى نيكولاس الليلة . فوجوده يمنحها الثقة . بحيث تبدو سائر المشكلات أقل أهمية.

٦ - غولف العواطف الحارة !

لم يصب غشاء السيت قديراً من النجاح . وبذل أدريان كل جهده ولكن مادلين كانت تعلم أنه غير سعيد . وجاء هارفي كامنغز ودعاها إلى نزل قريب للرقص قائلاً إن معه ساري لي و بول لوكاس . وعرض عليها أدريان الذي لم يكن يميل إلى الرقص . أن تنذهب . ولكنها اعتصرت . حاضرت هارفي . وقال لها أدريان أنه كان في وسعها الذهاب مرافقة لكامنغز . فردت عليه بأنها تعلم أنه يحاول أن يجعلها تهتم بهارفي . وتساءلت : «هل تعتقد أن رجلاً ما يمكن أن يشبه آخر ؟ إنني أذكرك أن الأمر ليس كذلك» . بدأ الشعور بالذنب على وجه أدريان وأدركت مادلين أنها أصابت الهدف . وهنا رأى أدريان الخاتم الزمردى . فاستحت عيناه وقال مدعوشاً : «من أين لك هذا ؟ وأين خاتم زواجك ؟»

«أعطاه نيكولاس لي... أليس جميلاً؟»

«جميل جداً، ولا يقدر بشئ، أنه أجمل شيء وقعت عليه عيناى»

شعرت مادلين بقلبيها يخفق بشدة. لم يكن نيكولاس قد ذكر أنه على هذا القدر من القيمة، وعميق أدريان:

«ربما كنت غفطاً، وإذا كان قيتال أعطاك هذا الخاتم، فلا أظن أنه ينوي شيئاً بخادعاً، كان في وشعه أن يعطيك خاتماً يرضيك إلى حد الإعجاب، بدون أن يكون غالي القيمة، ولعل السيد قيتال ليس بالسؤال الذي اشتهر به»

غمغمت مادلين مستبسة.

«إنني متأكدة من ذلك»

ومر الأسبوع التالي ببطء، وتخللتها مكالمات نيكولاس الهاتفية، وتحسنت علاقة مادلين بديانا، ولكن مادلين كانت تعلم أنه أمر مؤقت، ويبدو أن تقدير نيكولاس بالتعبئة أياماً قليلة قد طال، ورغم أنه كان يتصل بها بدا متحفظاً، وبعد أسبوع، وفي صباح الأحد كانت مادلين تتناول طعام الإفطار عندما دق جرس الباب.

ظنّت مادلين لأول وهلة أنها قد تجد نيكولاس على العتبة، ولكنها وجدت ماريّا... دعيتها إلى الدخول يخالج قلبها شيء من الحزن، لماذا جاءت ماريّا هذه الساعة من الصباح، وهي ليست وقت زيارة؟

دخلت ماريّا وأبدت إعجابها بالغرفة، ثم تطلعت إلى مادلين قائلة إن نيكولاس طلب منها الحضور.

«هل غاد إلى انكلترا؟»

«كلا، اتصل هاتفياً في وقت متأخر ليلة أمس»

حاولت مادلين ألا تبدو مقرطة اللهفة، وأخبرتها ماريّا بأنه كان يتوقع العودة في منتصف الأسبوع، وأنه يخشى أن تكون مادلين فهمت الأمر خطأ... وشعرت مادلين بالارتياح بغيرها، وقالت ماريّا:

«إنه يريد بمحادثتك اليوم، ولا أعتقد أنه يجيد فكرة الاتصال بك دائماً وأنت في المدرسة»

ثم سألتها فجأة:

«إنك صغيرة بوالدي... أليس كذلك؟»

قاومت مادلين برأسها، وقالت:

«هل تمانين؟»

«لا، ليس كذلك في الحقيقة، وإن كنت أعترف بأن هذه أول مرة يكون فيها مسؤولاً أمام امرأة عن تصرفاته»

«إنك تأخذين الأمر بهدوء»

فجالت في حياء:

«فيما يتعلق بنيكولاس! أظن ذلك لم أعش معه طوال هذه السنوات بدون أن أعرفه جيداً، إنه شخص رائع، الجميع يعجبونه، إنه سلس الحركة ومسل، وأرادت كثير من النساء أن يتزوجنه، غنيات وفقيرات على السواء»

كانت ماريّا تشبه ديانا في عزلتها، ولكن بينما اختارت ديانا تعظيم سعادة والدتها، أرادت ماريّا أن تساعد والدها، حتى ولو كان ذلك على حسابها.

حملت مادلين قنجان قهوتها القارخ إلى المطبخ، وقعدت ماريّا على الأريكة في كسل... ووجدت مادلين أنها تحب ماريّا كثيراً... وكان يلفتها أن ماريّا قد لا تحبها، ولكنها شعرت الآن بصفاء، أما ماريّا فلم تعرف امرأة عن كتب سوى جدتها، وكانت تنوق إلى شخص تشبه أمانا، وتخافهن. وعرفت أن مادلين يمكن أن تكون هذه المرأة، فهي مثقفة قادرة على الانصات.

ولفجأة فتح باب آخر ودخلت ديانا ببيجامتها لجمد شعرها الأسود، وتوقفت لدى رؤية ماريّا، وألقت إليها بنظرة حذرة، فايتست ماريّا، كانت دائماً ودودة إزاء الناس مهما كانوا وتحيين، وزأت أن ديانا طفلة مدللة مزعجة، فبادرتها بالتحية، ولكن ديانا لم تنضم بل سألتها إن كان والدها موجوداً، فبرزت رأسها نقياً وقالت إنها جاءت وحدها.

«حسناً»

قالت ديانا ذلك وتناولت مشطها، وبدأت تمشط شعرها الذي كان يبدو عتيقاً مستعصياً، وقررت ماريّا أن تتجاهل وقاحتها، وجاءت مادلين على

الأصوات . وسألها إن كانت ستخرج . فقالت إنها ستذهب إلى المدرسة مع جيف . ليشرف على صفار التلاميذ وهم يلعبون الكريكت . وسألها ماري إن كان جيف هو صديقها فردت قائلة ببرود . وب نظرة احتقار :

« بالطبع ... لا أريد الاقطار يا أماتي سأستعد للنزول »

تطلعت مادلين بقلق إلى ماري . وديانا تضع فتحاتها وقتي يعزم واعتداد إلى غرفة النوم . من المحقق ألا تكون بينهما أية صداقة . نظرا لعناد ديانا . قالت في ارتباك :

« أنا أسفة . ولكن ديانا لن تقبل الأمر المحتوم فلها يبدو »

سقطت ماري يديها وغصغت . وهي ترتقب مادلين بتفرس :

« لكنها ستضطر . إنك تدركين أن أبي جاد في ذلك »

شعرت مادلين بوجعها لتنهان . وتساءلت بصوت قلق :

« كيف تقولين شيئا كهذا »

« أنا أعرفه . ثم إنك أول امرأة قدمنى إليها بهذه الطريقة »

شعرت مادلين بمخاوفها تتلاشى . كانت كلمات ماري كالبلسم . وسألته ديانا أن ظهرت ترتدي تنطولا فضفاضا وسفرة مادلين ذات الفراء . ونظرت بازدراء إلى المرأتين الأخريين وقالت :

« إنها العاشرة والنصف . وسيأتي جيف قريبا في سيارة والده »

وما لبث الحرم أن رن . فقفزت ديانا إلى الباب . وجاءت بجيف وهي تشفع أن تجعل ماري تغار منها على أن لها صديقا وسيئا . ولكن الأمر لم يحدث على هذا النحو . فعندما رأى ماري حديق فيها بدفشة . وأدركت ديانا أنها ارتكبت خطأ . ولكنها اضطرت إلى تقديم كل منهما إلى الآخر فانسعت عينا جيف وهو يدرك الاسم . وحيث ماري يسر وطلاقة ... وبدت له - في ردائها الأحمر الأنيق - مختلفة عن الفتيات اللواتي يعرفهن . ولعت عينا ديانا بغضب وهما يواصلان تبادل النظر . أما ماري فكانت مسرورة . إذ تعلمت من وقت مبكر كيف تعامل الأولاد . وعندما خرجت تساءلت مادلين عما ستقوله ديانا لجيف عندما يفردان . فقد كانت غاضبة وهي خارجة . قالت ماري متفهمة :

« لا تقظني . ستعود إلى طبيعتها . ولعلها تعتقد أنه رائع لأنه وسيم . أما أنا فأظن أنه ذئب . لن يؤدي في شيء . ولكنني لست متأكدة من ذلك بالنسبة إلى ديانا » وأخيرتها ماري أن هارفي هو الذي جاء بها . وأنه سيحضر لاحتضانها . وقالت لها إنه وأها ليلة أمس . فأخيرتها مادلين بأنها كانت بصحبة أدريان . وأن نيكولاس لم يعترض على ذلك ... وحديثها ماري عن جدتها واسمها كريستينا . وقالت إنها لا تزال في أواخر الخمسينات . وأنها كانت في الثامنة عشرة عندما ولدت نيكولاس . وأن جدتها وقع في غرامها من أول نظرة . وهذا أمر لا يحدث إلا في الكتب على ما يقولون . ولكنها - أي ماري - لا تعتقد ذلك . بل إن المرء ليفكر أحيانا أن ثمة شخص آخر يناسبه على الفور . فأمنت مادلين على قولها إذ كانت قد انجذبت إلى نيكولاس من البداية .

وأخيرتها ماري أنها سيذهبان إلى إيطاليا في عيد الفصح . حيث بيت جدتها في فيلينييا على ساحل البحر المتوسط . على مسافة ٥٠ ميلا جنوب روما . وبعد البيت تحفة رائعة من الجبال - مزودة بشرفات تزينا أحواض من الزهور - وفي ساحته نافورات جميلة . كما أن لديها مجنأ مسمى باسمها ماري كريستينا يقف الآن في خليج نابولي . وأن والدها سيأتي به إلى فيلينييا . وبدا القلق على وجه مادلين وقالت :

« إنه لأمر مخيف هناك هوة ضخمة تفصل بيننا . وإني لدهوشة لأن والدك نظر حتى ناحيتي »

« نيكولاس سمع نساء المختبعات اللواتي يتدخن في حب الرجال الأغنياء من ذوي الوسامة . إنهن يعتقدن أن المظاهر هي كل شيء . ويتفنن الأموال يوميا على العناية بوجوههن وأجسامهن . ولكنك لست مثلهن - إنك تبتدين طبيعية ومتواضعة . ولا تحتاجين إلى كورسيهات غالية لتهب لك جسما رشيما . أو كتل من مراد التجميل لتتقنه بشرتك . الرجل يريد المرأة التي تبدو في الصباح . عندما تنهض من الفراش . في نظرتها نفسها كما كانت . وهي تتناول العشاء . الليلة السابقة »

ودق جرس الباب . وجاء هارفي قائلاً وهو يمشي :

« أهلاً ... كيف حال الأرملة الرائعة ؟ تخلصت مني في الأسبوع الثالث فخلصاً »

حسنا . كنت هناك . نيكولاس لم يكده يخرج من البلاد . تتناولين العشاء مع ذلك البقيض سنكلير ؟

قالت مادلين في استياء :

«أدريان ليس بغيبضاً . نيكولاس يعرف كل شيء عنه . وإن كنت لا أعرف لماذا أشرح لك تصرفاتي» .

ودعاها هارفي إلى أن تأتي معها لتناول الغداء . لاسيا وأن نيكولاس سيتحدثانها في الثانية والنصف . وأمنت ماريًا على ذلك . ولكن مادلين اعتذرت بسبب ديانا . وإن كانت قبلت الحضور بعد الغداء ... وما أن خرجا حتى استدت مادلين ظهرها إلى الباب في ضعف متسائلة عما يريد أن يتحدث إليها نيكولاس بشأنه . وانتابها القلق ... وجاءت ديانا إلى البيت في حال سيئة . فقد قضى جيف فترة الصباح كلها يسألها عن ماريًا . ولو كانت ماريًا صديقة لربما ضحكت ديانا من هذا كله . ولكنها كانت تنتمى إلى العدو . لذلك فهي محزنة .

وقالت غداً في صمت . ولم تعرض عندما أخبرتها مادلين أنها ستذهب إلى فندق ستاج بعد الظهر لتلقي مكالمة من نيكولاس ... وفي الفندق ، الذي كان لا يزال غاصاً برواد الغداء ، نظر إليها موظف الاستقبال باستغراب . ولكنه رد عليها بأدب عندما سمعها تطلب ماريًا فيثال . وكانت ماريًا هي التي فتحت لها باب جناحها وأدخلتها . وقدمتها إلى مرافقتها الأنسة سايكس ، التي سألتها عن نفسها ثم أخبرتها بأنها كانت سكرتيرة في وقت ما للكاتب جون بروكس .

وجاءها هارفي بشخصيته المرحية . وتناولوا القهوة جميعاً . وأخيراً جاءت المكالمة ومادلين في ذروة توترها . فأشارت عليها ماريًا بأن تتلقاها في غرفة أخرى . ففرحت لذلك . وجاءها صوت نيكولاس يرن في أذنها كاللوسيقى . وأخبرها أنه يقتطعها . ولكنه لا يستطيع الحضور قبل يوم السبت . وإن كان يود الحضور فوراً وذلك لاضطراره لاستقبال بعض العملاء . وقال لها إنه سيلعب الغولف لينفس عن بعض عواطفه الملتهبة . مع زوج شقيقته وليس مع أي امرأة أخرى . وطلب منها أن تنتظره في مطار لندن عندما يحضر في نحو الساعة مساءً .

فوافقت وهي سعيدة . وسالت الدعوى ساخنة من عينيها وهو يودعها . ولكنها جلتها بسرعة . وودت لو تنصرف بدون أن ترى أحداً لتعيش من جديد كل كلمة قالها لها .

« قلن أودى نفسي يا حبيبي. نيكولاس يختلف عما تقولين، أريد فقط أن تفهمي،
 كوني اجتماعية وحاولي أن تعرفيه جيداً وبشكل صحيح، ربما تحبينه.»
 التفتت ديانا بعيداً لتتجنب عينيها، وقالت :
 «أنت تتوين المضي إذاً في هذا الشأن.»
 «بالطبع، ولم لا؟»

«لصاحبة ديانا، وهي مضطربة العاطفة:
 «عشنا معاً سعيدتين، والآن تريدان أن تفسدي كل شيء.»
 «كيف؟ إذا تزوجت نيكولاس؟ كيف يمكن أن يفسد هذا كل شيء؟»
 «تزوجينه؟ أوه، يا أمي... إنني موقنة أن فكرة الزواج لم تخامر عقله، إنك
 تعيشين في السحاب مع الأحلام.»
 «يجب ألا تحدثيني بهذه اللهجة يا ديانا.»
 «ولم لا؟ عمي أدريان يوافقني، ولا يمكن أن يكون كلانا خاطئين.»
 «لا أريدك أن تتحدثي عني مع أدريان يا ديانا.»
 «لهم إهم ليسو من طرازنا... وأنت أكبر منا من أن تتصرفي هكذا.»

ارتجح القول على مادلين لدى سماعها هذه العبارة، وتشهدت بتناقض، كان
 من الواضح أن ديانا تريد أن تقوم بدور الشاعمة، على أمل أنها مادامت لا تنتظر
 فإن كل الأمور البغيضة تنتهي بطريقة تناسبها.

وفي الطائرة ثبت نيكولاس حزامه لدى الاقتراب من مطار لندن، سيرى
 مادلين مرة أخرى بعد قليل. شعر بنضه يرتفع وهو يفكر في لقائهما. كانت
 أياماً عشرة طويلة، وكان قد نفذ صبره وأراد العودة بعد أول يوم. وأرادت أمه
 التي كانت ستلتحق به يوم الأربعاء أن يبقى معها لمرافقتها، ولكنه اعتذر بأن
 أصامه عملاً في أنكلترا ينتظره، وكانت تحسه على الزواج منذ سنوات، وقد اختارت
 له صوفيا رينولفي وهي وارثة ثرية من أبناء عمومة والده البعيدين، ولكنه
 أدرك الآن، لأول مرة، أنه لا يمكن أن يسمح لنفسه بفكرة الزواج منها أو أي
 امرأة أخرى ما عدا مادلين. كان زواجه من جوانا شيئاً فارقاً رتبته أيزاء إرضاء
 للوالدين وشعر بالأسف عندما ماتت ولكن لاشيء أكثر من ذلك، كأنها تزوي
 صديق من معارفه. وأدرك نيكولاس أنه لم يكن قد قابل بعد امرأة يشعر بأنه

٧ - السرّ الرهيب

ومر الأسبوع التالي ببطء، كل يوم منه يبدو بلا نهاية، وكان أجل ما في
 الأيام مكالماته، ولكنها كانت قصيرة، وكانت تتلقاها في مكان عملها فلم
 تستطيع أن تعبر عن نفسها بطلاقة، أما ديانا فلم تفهم لماذا لم يعد
 نيكولاس، وبدأت تعتقد أنه ذهب إلى غير رجعة، وقابلت جيف عدة مرات
 ولكنه كان يتحدث عن ماري، وكان من الواضح أنه يأمل مقابلتها مرة أخرى
 ونقد صبرها عندما قال لها كم هي جذابة، ورفضت أن تكون ماري محور
 الحديث بينها بعد ذلك.

وحاولت مادلين أن تغير ابتها مرات عدة بأنها ستذهب إلى لندن مساء
 السبت لاستقبال نيكولاس، ولكنها كانت تغير الحديث كعادتها عندما لا
 يعجبها موضوع ما، إلى أن كان مساء الجمعة وهما يتناولان الشاي، قالت لها
 بصراحة:

«سأخرج مساء الغد»

«وكذلك أنا... سأذهب إلى النادي مع جيف.»

«ولن أخرج مع أدريان... ألا تريدان أن تعرفي إلى أين سأذهب.»

«لا بد أنك ستقابلين نيكولاس فينال... إسمعي يا أمي... لا بد أن تتفق على
 أننا سنختلف في هذا الموضوع، لا أعرف كيف تتصورين أن ينتهي هذا الأمر.
 ولكنني موقنة أن والدي سيعمل في غيره لو عرف به، إنني لا أريد أن تؤثر
 نفسك يا أماء.»

يريد أن يحميها، لا أن يستغلها. ومع ذلك تسأل أين تكمن جاذبيته بالنسبة إلى مادلين، في ماله أم في شخصه؟

ولم يجد مادلين في انتظاره... ثم سمع رفع خطواتها مسرعة خلفه فاستدار ليبحثها على وشك التعلق بذراعه. واعتذرت عن تأخيرها بأن سيارة الأتوبيس التي أقلتها قد شلت حركتها في ازدحام المرور... وصحبها نيكولاس في تاكس إلى ناديه بشارع سان جيمس. وفي الطريق عاوده الحنين إليها فعانقها، ولكنها خلصت نفسها منه، فأخبرها أنه عقيم بها، وأنه يحتاج إليها، ويريد الزواج منها، فهست إليه بأنه لا يعرف إلا القليل عنها. واعترفت له بحبها ولكنها قالت إن هناك شيئاً لا بد أن يعرفه بشأن جو وديانا... وفي النادي، حول مائدته الخاصة طلب منها أن تروي له كل شيء عن زواجهما، فقالت:

وقتل أبواي عندما كنت طفلة وكفلتني جدتي. وكانت طيبة معي ولكنها كانت صارمة. فكان لا بد أن أعود إلى البيت في وقت لا يتجاوز التاسعة والنصف مساءً، وكانت تريد أن تعرف دائماً أين أذهب ومع من أقدمت بالطلع. وبدأت أخرج مع مجموعة من الشباب الطائش. كنت أدرس في الكلية التجارية في ذلك الوقت. وكان لجدتي منزل في كينستون. وكنت أضي كل أمسية في الرقص أو في ركوب الدراجات البخارية خلف الشباب. ثم حدث ما لا تحمد عقباه. وقعت في الخطيئة مع أحد الشباب. كان قد تراض بشأنني مع زميل له. ومات بعد ذلك بأسبوع في حادث صدام بدراجته البخارية. وعندما اكتشفت أنني حامل انتابني اليأس. وكنت متوقفة أن هذا الأمر كفيل بقتل جدتي لو علمت به. وظللت حائرة لأسابيع في خوف دائم من أن أصبح أماً غير متزوجة، ولي طفل غير شرعي... وكان جو أستاذاً للرياضيات في الكلية. وذات يوم وجدني مفشياً على في السر فنفقني إلى مكثبه. وكان رقيقاً مثليها فوجدت نفسي أخبره بكل شيء. واعترفت له بحافتي فلم يصرخ بي ولم يعنفني. بل جفف دموعي وطلب مني ألا أفعل، وقال إننا ستجد حلاً... ثم طلبني بعد ذلك فلزواج فذهبت، ولكنه قال لي إن والدته توفيت وأنه يعيش وحده ويريد أن يبدأ برعى شؤونه. وأنه سيرعاني مقابل ذلك. كنت في السابعة عشرة عندما كان هو قد تجاوز الأربعين. ولم يكن لي خيار لأنني كنت أفكر في جدتي. وكان زواجي من جو يجنبني

العار. وكان مافعلته في ذلك الحين يبدو خطأ. ولكنني أستطيع القول إنني لم أفعل أبداً ما يؤدي مشاعره جو بعد زواجهما. واعتقد أنني أسعدته. أما ديانا فلا تعرف شيئاً عما حدث. وهي لا تزال تعتقد أن جو كان والدها. وكان معها على أفضل مايرام، ورغم أنني وجو لم تكن زوجين بالمعنى المفهوم عاشت ديانا سعيدة. وكان جو سعيداً فخوراً بها كأي أب. وعندما بلغت الخامسة أصيب جو بسرطان في الرئة وأجريت له جراحة ولكن حالته ازدادت سوءاً. فعملت سكرتيرة لمدير شؤون العاملين في إحدى الشركات الهندسية. ومات جو وحرزت عليه ديانا حزناً شديداً. وكنت أشعر بتأنيب الضمير وأتساءل إن كان زواجهما قد عجل بمحالفته. وأخيراً بعنا المنزل الذي كان يملكه وانتقلنا إلى شقة قريبة. ونفذت التقود فالتحقت كسكرتيرة لأدريان في هذه الوظيفة خارج لندن، حيث الحياة أرخص والمزب أعلى. وكان أدريان هو الذي حصل لنا على الشقة التي نساكنها.

تساءل نيكولاس إن كانت تنوي أن تخبر ديانا بأمر والدها الحقيقي فقالت إنها لا تعرف بعد. وأبدى إعجابه بجو وسأها إن كانت أحبه. فقالت إنها أحبه ولكنها لم تكن مغرمة به. فسأها إن كان قد طارحها الهوى فردت بالنفي. وقالت إنها كانت في غرفتان منفصلتان. فقال نيكولاس:

فهست. هذا هو السبب في أنك تهدين كأن لم يمك أحد من قبل. ولا أعتقد أنك عرفت الحب على حقيقته كما يجري بين الرجل والمرأة. وإذا كان جو متفهماً. فلا تتوقعي مني أن أعاصلك المعاملة نفسها.

وأفضت إليه بحبها وقالت إنها تريد أن تشاركه كل شيء. وأن تظل معه طول الوقت. وذهبا إلى أحد الملاهي الليلية حيث رقصا متعانقين. وعرفت أنها تحبه كما لم تحب رجلاً من قبل. أما نيكولاس فقد أدرك أنه ظل طول حياته يبحث عن امرأة مثل مادلين. وأنه يريد أن يرعاها ويعوضها المباح التي افتقدتها، بعد أن دفعت ثمنها غالياً للحظات طيش في شبابها.

وأخبرها نيكولاس أنه طلب إلى هارفي أن يأتي بالسيارة لاستطعاعها في العاشرة حتى يستطيع أن يعيدها إلى المنزل في وقت معقول. وعندما عاد إلى المائدة بعد الرقص أخبرها بأنه لا يحب ما حدث لها في الماضي وأنه لا يجد ما يبرر أن

تطلع ديانا بشأن والدها وقال إن مايجده هو الزواج منها، مجرد أن يستصدر تصريحاً بذلك، فقالت إن هذا مايريد أيضاً، ولكن ديانا لا تزال تفكر في زواج أمها من أدريان، فسألها إن كانت ستتزوج أدريان لو لم يظهر هو في حياتها، فأجابته بالنفي، وقال لها إن ديانا متعلقة بها إلى حد الشعور بالملك، وأنها ترى أن زواجها من أدريان لن ينتزع منها أمها كما قد يحدث إذا ما تزوجت رجلاً أصغر سناً، ثم أنها أيضاً تفتنى أن تنجب أمها أطفالاً آخرين.

غمضت قائلة بيدها:

«أشعر بأنك على حق».

«إني موثق من ذلك، إن هناك تفسيراً منطقياً لكل شيء، وإني أريد أن تزوج قبل عيد الفصح، سندفع إلى فيلينا في العيد، إلى بيت أمي، وستطيع ديانا أن تأتي معنا وأن ترافق ماريلا، وستعمل والدتي على أن تبقى منفردة، وقد نتركهم ونذهب لتركب اليخت ونحرق به عباب الأفياتيك، سيكون الجو رائعا وسنكون في عزلة تامة، وستعشقين بلادي، ستكون الليالي طويلة متراخية، لا تدعيني أنتظر أكثر من ذلك».

وعندما جاء هاري أبلغه نيكولاس باتفاقها على الزواج، وفي الطريق إلى منزلها غالتها بحمارة، وسألها متى يراها في الغد، فقالت إن من الأفضل أن يأتي إلى مسكنها، لأنها تريد أن تخبر ديانا بأمرها، وأن تسبح لها الفرصة ليزداد تعارفاً، وشكرته مادلين على أنه وثق بها ولم يغضب بسبب ما روت له عن جو ووالد ديانا، فقال لها يرفق:

«لو لم تكن حياتك قد أحيطت بالحماية على نحو ما حدث، لما كنت أنت مادلين التي أحببتها، سأكون لك بمثابة أول زوج تعرفينه، وهذا يعني الكثير بالنسبة إلى يا حبيبتى».

٨ - وجه كالفرز

لم تستطع مادلين أن تخبر ديانا بشأن نيكولاس في تلك الليلة، وكانت قد وجدت في الفراش عندما وصلت، نائمة على ما يبدو، وقضت مادلين نفسها ليلة بيضاء، وصحت في اليوم التالي كأنها لم تنم على الإطلاق، وجدت ديانا متنصية في الفراش ترتشف بعض محلول الأسبرين فيما يبدو، وكانت تبدو محتقة الوجه، فسألته عما بها فأخبرتها بأنها مريضة، وأنها تعتقد أنها أصيبت ببرد، فأعدت لها زجاجة ماء ساخن وبعض الطعام، وقررت أن تخبر نيكولاس بأمرها حتى إذا جاء، ثم يقل شيئاً يغضبها، فتذعرت بأنها ستقابل وكيل المالك وخرجت حيث اتصلت بقتلح ستاج هاتفياً، وكانت العاشرة والنصف صباحاً، ولكن بدا من صوت نيكولاس أنه لا يزال في الفراش، قالت إنها لا تستطيع أن تخبر ديانا بأمرها اليوم، فوافق على ذلك ولكنه طلب أن يحضر، حتى تعتاد ديانا رؤيته، واتفقا على أن يكون ذلك في الثانية بعد الظهر، وشعرت بأنها تراقب إلى رؤيته ولكنها كانت قلقة بشأن سلوكه إزاء ديانا، ووجدتها مضطربة في حالة حزن قسحت وجهها باستفجة مبللة بماء بارد، وظللت منها ديانا بعض عصير الليمون فأعدته لها، ونامت بعد ذلك، فتناولت مادلين وجبة خفيفة بدل الغذاء، وهي ترقب الساعة باستمرار، لم يكن قد بقي على عيد الفصح إلا أربعة أيام وكان من المقرر أن يطير آل فيتال إلى إيطاليا يوم الخميس على الأكثر، وكان من المقرر أن يحدث الكثير حتى ذلك الحين.

وجاء نيكولاس بعد الثانية بقليل، وشعرت في حضوره باضطراب كأنها

قطعة صغيرة ، فصالح غابها وغافقها وهنا ارتفع صوت ديانا يناديها ، وبينما كانت تنفيها بعض عصير الليمون ، دخل نيكولاس ، فاستبعت عينا ديانا غير مصدقة وكانت تشفق بالشراب ، وبدت كارهة لرؤيته ... وأشعار نيكولاس بضرورة الاتصال بالطبيب ، وخرج للاتصال به رغم معارضة ديانا ، وبناء على تعليمات مادلين ، فنظرت ديانا إلى أمها بغضب وقالت : «تركته يفعل ذلك عن عمد ، كلاهما شخصان بغضبان !»

فشهقت مادلين قائلة :

«ولكن لماذا ؟ لا تريد أكثر من أن تتحسن حالتك في أقرب وقت»

«لماذا ؟ حتى تشعر بحريتك في الخروج متى شئت»

«لم يكن لهذا داع ، يا ديانا .»

«حقاً ؟ حسناً ، فليحضر الطبيب إذا ، وسترين إن كان هذا يعني»

وكان الدكتور فولنر رجلاً مسناً ، ولكنه جاء على الفور ، وبعدما فحص ديانا عاد إلى غرفة الجلوس . وقال إنه لم يجد شيئاً أكثر من احتقان في الأنف بسبب برد خفيف في الرأس ، وأنها تتأرض ، ويجب أن تذهب إلى المدرسة .

أخذ نيكولاس يتحرك متحملاً بعد ذهاب الطبيب ، وقال :

«يا إلهي ، لا بد أنها تعتقد أننا مغفلان تماماً ، حسناً لن نستطيع أن نفلت مما فعلت...»

تطلعت إليه مادلين مستأجلة :

«وما هذا ؟»

«هذه الفكرة التي نساورها... إنها إذا شامت أن ننتظر بالمرض فكل تصرف من جانبنا سيصبح مغلطاً ، وربما يلفى.»

«وماذا ستفعل ؟»

قال وهو يدفع يديه في جيبه :

«أخبرها بالحقيقة الآن ، من الواضح أنها تدرك أنك تخفين شيئاً»

أمسكت مادلين بذراعه وقالت :

«أنا موفية أنك بحق ، يا نيكولاس ، ولكن ليس في وسعنا أن نخوض في هذا كله الآن ... ليس في هذه اللحظة.»

تساءل بصوت بارد :

«لماذا»

هزت مادلين كتفيها وهي لا تكلم تجد الكلمات ، وقالت :

«أوه ، أعتقد أنني أريد أن تكون الأمور مستقيمة بيننا ، والآن ، نتحدث مشادات كلامية ، ويعلم الله متى يطول العداء بعد ذلك.»

عيس نيكولاس ، وقال وهو يتهمها :

«إنك تخشين أن تخبريها بامادلين ! ولكن تذكري أننا في يوم الأحد ، وستصل والدتي يوم الأربعاء ، ثم تسافر إلى فيلينيها يوم الخميس ... فإلى متى تتوقعين أن تؤخري يوم السؤال هذا»

التفتت مادلين بعيداً وقالت :

«لا أفري... حدث الأمر كله فجأة.»

«فجأة ؟ فجأة ؟ أتريدين بامادلين أن أنتظر إلى مالا نهاية حتى تستجيب بعض الجراحة لمواجهة ابتك في أن تتيج لك سعادة كبيرة»

«كلا... أنا لا أريد الانتظار ، ولكنني لا أريد أن أحطم قلب ديانا.»

قال بهشونة :

«قلب ابتك لأعسر على التحطيم من قلوب أعرفها... فهل ستقولين لها الآن ؟»

«إنتي... إنتي... أرجوك ، يا نيكولاس.»

تتناول معطفه فجأة ، وبدأ وجهه كاللغز وإن التهمت عيناه بالغضب .

وقالت مادلين : وهي تشعر بقلبها يشب من قسها :

«إلى أين... أنت ذاهب ؟»

قال وهو يمشي إلى الباب :

«سأعود إلى الفندق.»

«أوه ، يا نيكولاس ، لا تذهب هكذا.»

ولكنه تجاهل توسلاتها وفتح الباب وخرج وأغلقه وراءه بدون أن يستطيع

منعه . كانت هذه تجربة مؤلمة له أيضاً ، فلم يسيق أن تحدثه امرأة علناً ، وإنه لن

المهانة أن يدرك أنه رغم افتقارها إلى الحسم ورغم جنبها المتشر ، لا يزال يريد

يريدها على نحو كان يمكن معه لو بقي أن يلين وأن يوافق على تأجيل زواجها

إلى ماشيت.

وتهاوت مادلين بمرارة على الأريكة وقد وجدت نفسها وحدها. وفاضت الدموع من عينيها. كان وقع مافلته به يقرعها ويفزعها.

٩ - ياهول ماحدث !

وعاد نيكولاس في سيارته إلى فندق شياخ مباشرة - كان في غضب شديد فلم يرد على موظف الاستعلامات عندما حياه . وتجاهل المصعد وصعد المخرج إلى جناح ماريلا وهو قائد الصبر ، وفتح الأبواب بشدة ومضى بفطرسه داخل الغرفة.

وكانت ماريلا وحدها ، ممددة على أريكة تقرأ مجلة ، وتناول بين حين وآخر بعض الشوكولاتة من علبة بجانبها. وايشتمت له في قنور وهو يدخل ، وهي تتسائل عما أعاده في هذا الوقت المبكر وفي مثل هذا المزاج الملتهب . وكان وجهه يبدو مظلماً كسحابة قاتمة ، وكان عليها أن تضبط نفسها ألا تسأل عما حدث . كانت قد تعلمت منذ سنوات كثيرة ألا تسأل هذا النوع من الأسئلة إلا إذا كانت مستعدة لمواجهة عاصفة بدل الاجابة.

قالت بحبيبه في مبرح بالانكليزية :

«مرحبى ، هذ مفاجأة».

كانا قد اعتادا الحديث بالانكليزية وهما منفردان : لأن نيكولاس قضى وقتاً طويلاً في الولايات المتحدة ويعتبر الانكليزية لغته الثانية.

ارتقى نيكولاس على مقعد منخفض في مستبدتين ، وحل أزرار معطفيه وقال لمجأة :

«أعدي لي شرايبا ... أنت تعرفين ما أحب ..»

«وأعزف كيف تحب ...»

قالت ذلك بخفة وانزلت عن الأريكة برشاقة. وكانت ترتدي تنطلونا أحمر ضيقاً يلتصق بجسمها، وكثرة بغير أكمام وشعرها معقود في شكل ذيل الحصان. وكانت تبدو صريحة وغير معقدة في عيني نيكولاس المجهدين، لماذا لم تستطع ديانا سكوت أن تكون طفلة طبيعية متوازنة؟

قالت ماريا وهي تتأوله كوب الشراب:

«إليك يا عزيزي، هل تشعر بأنك على مايرام؟»

«كلا...»

فلما نيكولاس وهو يزاد تنطياً، بينما غاصت ماريا في الأريكة مرة أخرى وهي تشعر بالارتباك، واستعادت مجلتها ونيكولاس يحدق فيها متسائلاً:

«أين الأنسة سايكس؟»

«في غرفتها، لماذا؟ هل تريد رؤيتها؟»

«كلا... ماذا كنت تفعلين، إلى جانب تغذية نفسك بالشوكولاتة؟»

«ليس كثيراً... خرجنا إلى النزهة هذا الصباح كما تعلم، وتناولنا القهوة في مشرب شاي إنكليزي أصيل، ولكنني أعتقد أنه مكان عادي.»

قالت ذلك مبتسمة، ولكن نيكولاس بدا عليه السأم، ومالئ أن نهض واقفاً، كان شعور العذاب الذي يتخلل عظامه يغيظ حقاً. وكان يعلم أنه لن يتم الليلة بارتياح.

خلع معطفه وقذف به فوق مقعد، وأخذ يتنور في الغرفة متسللاً، فبدأ كحيوان كبير حبيس في قفص يدير وراء المتعة في نفس ماريا. كانت فخورة بوالدها ولكنها كانت تعلم أن هناك خطأ خطيراً قد حدث، قالت:

«إنك تجعلني عصبية.»

فجاهل نيكولاس ملاحظتها وواصل خطوه. وسكب لنفسه مزيداً من الشراب وقال:

«هل تريدان الخروج للنزهة؟»

«وأعتقد، أن في وسعنا ذلك، هل أنت متأكد أنك تريدني أنا؟»

قال بوحشية:

«متأكد تماماً.»

هزت ماريا كتفيها ونهضت:

«لا تحطم رأسي، سألتك سؤالا بسيطاً، وإنني لأقول استناداً إلى تعبيرات وجهك إنني آخر إنسان تريد أن تكون معه.»

ازداد نيكولاس عيوساً، وسأل:

«ماذا يعنى المحيم تعين من وراء هذه الملاحظة؟»

قالت ببراعة:

«حسناً، هناك رفيقات من النساء، وإنني لأقول الآن إن ما تحتاجه هو شيء يختلف عن صحة ابتك.»

«حسناً، إنك لمخظنة.»

«وماذا عن مادلين إذا؟»

«فلنتناسى مادلين، أليس تغري ملائمتك؟»

«بالطبع، لأنك رديء الطبع، أنا ماريا... فلنتذكر!»

لانت عيناه لحظة وقال:

«بالطبع، حسناً... لا تبتيني أنتظر طويلاً.»

راطمها على مؤخرتها وهي تمر بجوارها فابتسمت له بمرح، مهما كان ماحدث من أمر خاطيء، فلن يقول لها الآن.

ارتدت تنطلونا أبيض من الجرسية الحريري الثقيل، ومعه جاكيت تناسيه مزدانه باللون القرمزي، ووضعت في قدمها خفاً أبيض لأكبال المجموعة وبدأت كشاية في الثامنة عشرة وليس صبية في الخامسة عشرة. وشعر نيكولاس بشيء من الفخر وهي تنضم إليه. كانت تبدو متوازنة واثقة من نفسها، مثله تماماً، وإن كان لا يشعر الآن بأنه مدلل أو واثق من نفسه.

كانت سيارة شريدان الحمراء تقف في مكان الانتظار، فاندست ماريا في مقعدها وهي تشعر بمرور تام لهذا الخروج غير المتوقع. فبنت وضوها إلى انكثرا لم يجد والدها وقتاً كثيراً بقضيه معها، وشعرت الآن بالسرور لأنها معاً. وكانت السوق في أوتربري مزدهجة بعد ظهيرة هذا الأحد. كانت هناك مجموعة من الشباب يقفون هنا وهناك يتعاضدون ويتصاحكون، فحسدتهم ماريا على

انطلاق سجنهم . كان لها في ايطاليا اصدقاء كثيرون ، وكانت تقضي معظم عطلات نهاية الأسبوع في البحيرة ، تركب الزوارق وتسبح ، وكانت تعتقد الصحية المطلقة السهلة للفتية والفتيات من سنها ، إذ لم تكن تعرف أحداً من الشباب في أوتربري . ومع ذلك كانت تعزي نفسها بأنها هنا مع نيكولاس وهاري ، وهذا يعوضها عن الكثير .

وفجأة انتصبت إلى الأمام في مقعدها وقالت :

«هذا هو الفتى صديق ديانا ، يبدو وكأنه ينتظر أحداً ، هل تعتقد أنها ربما كانت ديانا؟»

قال نيكولاس في جفاف :

«في الأغلب لكنه سينتظر عبثاً وقتاً طويلاً ، لأنها لن تحضر ، فهي تلازم الفراش» .

بدت نبرته ساخرة فتطلعت إليه ماريا لحظة ، وتساءلت :

«هل هي مريضة؟»

قال نيكولاس وأصابعه تفيض على عجلة القيادة :

«هكذا تقول» .

«ألا تعتقد إذا أنه يجب أن نتوقف ونخبره ؟ إنه يبدو وقد ستم وقفته بالفعل ، ربما كان قد انتظر طويلاً» .

هز نيكولاس كتفيه . لم تكن لديه رغبة خاصة في أن يحدث أحداً يعرف آل سكوت جيداً ، ولكن بدا أنه ليس أمامه خيار ما لم يكن يريد أن يره على أسئلة كثيرة من ابنته تتصل بهذا الموضوع .

التف بالسيارة حول الميدان وعاد إلى حيث يقف جيف ، وفتحت ماريا النافذة ونادت لثقت انتباهه :

«هل تنتظر ديانا؟»

اتجه جيف نحوها وقد بدا مذهوشاً وإن لم يكن مستاءاً ، وقالت ماريا لوالدها بصوت خفيض ، وبسرعة :

«ألا يمكن أن نطلب منه أن يأتي معنا؟»

قال نيكولاس بغير تحديد :

«أعتقد ذلك» .

«سيكون أمراً عظيماً أن يكون معنا شاب نتحدث إليه على سبيل التضييق» .

«أشكر» .

قال نيكولاس ذلك وهو يلقي إليها بنظرة جانبية ، فضحكت ، وقالت هامة ، جيف يصل إلى السيارة :

«أنت تعلم أنني لم أقصد ذلك بطريقة مسيئة» .

وقال جيف وهو يرتكن إلى النافذة :

«نعم ، أنا أنتظر ديانا» .

وقم بنظراته الصورة الجميلة التي جسدها ماريا وهي تجلس في السيارة الفاخرة ، وقرر فجأة أنه لم يعد يعياً إذا لم تحضر ديانا ، وقالت ماريا وعينها تسعلان :

«إنها لا تزال في الفراش ، ولن تحضر ، هل أصبحت الآن خالياً؟»

ضيق جيف عينيه وقال :

«أظن ذلك» .

«لماذا لا تأتي معنا إذا ؟ لا أعرف بالضبط أين نذهب ، ولكنه سيكون أفضل من بقائك هنا» .

اتمر وجه جيف ، وتطلع إلى نيكولاس قائلاً :

«ولكنني أعني أئن يعترض ... صديقك ؟»

فضحكت ماريا بمرح وقالت على سبيل التقديم :

«هذا والذي ، ولن يعترض ، اركب» .

وأفسحت له مكاناً في المقعد الأمامي حتى يتمكن من الجلوس بجوارها ، وتذكر نيكولاس أنه في الليلة السابقة فقط كانت مادلين تحتل هذا المقعد بجواره كاملاً ، وتساعد غضبه من جديد وانطلق بالسيارة بعنف أذهل حشداً من الشباب كانوا يرقبون السيارة عن كثب معجبين .

وكان نومه سيئاً في تلك الليلة على ما توقع ، أخذ يتقلب متعلماً في الفراش الكبير ، وتهض مرتين لتناول بعض الأسيرين بدون نتيجة . وصحا في الساعة في مزاج سيء ، ورأسه يوجهه على نحو لطيف .

ضيق الوقت في قراءة الصحف . ولم يظهر في المصنع إلا في الحادية عشرة .
وما كاد يخطو عبر الأبواب الزجاجية للسكنى حتى هتف به أحد موظفي
الاستقبال :

«سيد فيثال . هناك سيدة شابة تنتظر مقابلتك ياسيدي . إنها تنتظر منذ المباشرة .
قالت إنها جاءت لسألة شخصية . لذلك جعلتها تنتظر في غرفة المقابلات .

ازداد نبض نيكولاس : مادلين ! شعر بالدم يطرق أذنيه . من تكون
غيرها ! وغير المدخل الواسع وفتح باب غرفة المقابلات بقوة . وعندئذ نهضت فتاة
من المقعد بجوار المكتب كانت «ديانا سكوت» !

وأخذه خيبة أمه لعدة ثوان . ولم يصدق أن ماراً صحيحاً . وانقضاه الموقف
بهذا ليستجمع أمره ويخلق الباب . وكانت عيناه في برودة الثلج وهو يتطلع إلى
الفتاة التي قبضت يديها في حجرها . قالت في صهوبة وهي تفوص في مقعدها من
جديد :

«صباح الخير ياسيد فيثال .»

لم يرد عليها مباشرة . بل مضى ببطء ملتأاً حول المكتب وجلس في مواجهتها
في المقعد المنخفض ذي المستدين .
«لماذا أنت هنا ؟»

«فأمر وجهها وقالت :

«سأخبرك ياسيد فيثال . إنني أريدك أن تكف عن مقابلة والدتي ...»
ثم تتحدث قائلة :

«إلى الأبد .»

كانت التعبيرات على وجه نيكولاس عجيبة . وتساءل بوحشية :

«هل أنت جادة ؟»

فابتلعت ريقها بصهوبة وقالت :

«بالطبع . اسمع ... كنا سعيدتين حتى ظهرت . فمزقت أوصال حياتنا وقلبت أمي
علي .»

«أنت التي قلبت أمك عليك وليس ذلك من فعلي ... رباه ... إنني لا أرى كيف
يكون في رسلك أن تقول ذلك وهي تفضلك في تفكيرها على سعادتها .»

«حسنًا . إنها لم تنصرف على هذا النحو من قبل . إنها تعاملني وكأنني طفلة
تعوق أمورها .»

«هراء !»

«بل هو صحيح . إنها تعتقد أنك تفكر فيها جذباً لجرد أنك تعطيتها اهتماماً كبيراً .»
قال بغضب وهو ينهض :

«لست أدري كيف تجرؤين على القدوم إلى هنا والحديث عن والدتك بهذه
الطريقة الشنيعة . من تظنين نفسك في أي حال ؟»

«هبطت ديانا شفتيها إزاء غضبه وقالت باحتقار :

«أنا أحب والدتي ولا أريد أن يلحقها أذى . إن عمي أندريان يريد الزواج
منها . فهل تعتقد أنه سيظل يريدنا ... بعدك ؟»

«أخبرني .»

قال نيكولاس ذلك وهو يشتعل غضباً ثم اردف :

«كيف تجرؤين على القول بأنك تحبين والدتك ! إنك لا تحبين سوى شخص واحد
هو نفسك ! إنك تفرعين خوفاً من أن تنزويجي والدتك . ولا تهتمين إذا كانت
ستضار أم لا . كل ما يفتلك هو أن تفقدي مكانتك فقد تنجب أطفالاً آخرين ...
أليس كذلك ؟»

استمع وجه ديانا كأنما صفعها . ونهضت وهي تترنح . وهتفت بحدّة :

«أعتقد أن الأمر كله مثير للتعزز . كيف يمكنك أن تقول لي أموراً كهذه ؟»
«لأنها صحيحة ... لا تراوغي . هذا لن يفيدك . أستطيع أن أستشفك كما أرى
خلال الزواج .»

ووضع يديه على المكتب وهو يواجهها قائلاً :

«ما هذا الذي يفرز في الزواج ... في أي حال ؟»

«لا ... شيء ... ولكنك لست مثل أبي أو عمي أندريان . إنك ... إنك لفظيغ !»

تهدد نيكولاس في كلال . وهو يحاول جهده أن يضبط نفسه . وقال بهلوه :

«أخبريني لماذا ؟ وإذا لم تستطعي فسأخبرك أنا .»

لوت ديانا أصابعها معاً وقالت :

«ماذا تعني ؟»

«أعني أنك حتى هذه الأسابيع الأخيرة لم تفكري في والدتك كامرأة لا تزال شابة جذابة . بل إنك لا تقبلين ذلك حتى الآن ... تظنين أنني فطيع لأنتي لأنفق مع أفكارك الساذجة بشأن الرجل الذي يجب أن يتزوج والدتك . ولا تهتمين إلا بنفسك يا ديانا كما قلت من قبل . ولو كنت تهتمين بأمر والدتك لتوقفت لتفكري في أنها ربما وجدت شخصاً يجعلها سعيدة ... سعيدة حقاً» .
صاحت ديانا ، وصبرها يعلو ويهبط :

«لن تكون سعيدة أبداً معك»

ثم استطاع نيكولاس أن يتحمل المزيد ، فصاح :

«أخرجني ! أخرجني قبل أن أفقد أعصابي»

نهضت ديانا وتراجعت إلى الباب ، وصاحت بصوت مرتعش ، قبل أن تخرج بسرعة وتصفق الباب خلفها :

«إنك ليغيضي»

غاص نيكولاس في المقعد بجوار المكتب بعد ذهابها ، وأشعل سيجارة بأصابع مضطربة . ياتول ما حدث ؟ وتساءل كم من الرجال واجهتهم بنات زوجاتهم المقلبات . وهز رأسه في كلل . لا يستطيع والأمور كما هي الآن أن يصف مادلين بأنها زوجته المقبلة . فهي بعد ما حدث بالأمس بالكاد يصبحان صديقين . وتهدد ... ستم الأمر كله تماماً . إنه موثق أنه يريد الزواج من مادلين أكثر من أي شيء آخر في الدنيا . ولكن كيف يغفل زواجاً تلقى فيه ديانا أهمية أكثر منه ؟

١٠ - الابنة الهاربة

وجدت مادلين الأيام التالية بعد رحيل نيكولاس المفاجيء ، لا تحتمل . وكانت تقوم بعملها بطريقة آلية وتبكي في داخلها على الحب الذي فقدته . وكانت ديانا قد بقيت في الفراش طوال نهار الأحد ، ولكن مادلين لم تجد الشجاعة لأن تخبرها بما قاله الطبيب . وكانت قد رأت استقامة الرضى على ثمرة ديانا عندما سمعت أن نيكولاس رجل وأصبحت في مشاعرها على نحو مفرط ثم تستطيع معه أن تقول المزيد .

وفي يوم الاثنين ذهبت ديانا إلى المدرسة كالعادة وبدأت تعامل مادلين بعاطفتها القديمة . ورغم أن مادلين استسلمت في صمت ، فإنها لم تستجب لهذه العاطفة . لم تستطع ذلك . وكانت متعبة ذهنياً وتحتاج الذهاب إلى العمل خشية مواجهة أدريان . على أن أدريان ، بعدما استقر منها إذا كان نيكولاس قد عاد يوم السبت بعد خروجه . لم يعقب أكثر من ذلك ، فشعرت مادلين بارتياح . إذ لم تكن تعرف ما يمكن أن تود به عليه .

وقعت أن يتصل بها نيكولاس هاتفياً لكنها أصيبت بخيبة أمل . وشعرت بالعجز من المؤكد أنه لا يتري إنهاء ما بينهما على هذا النحو لقد حذرها أدريان بالطبع . أنه ليس من ذلك الطراز الذي يمكن أن يرتبط به المرء . ولكن هذا لم يكن السبب في خروجه العاصف من الشقة . لقد احتقرها لافتقارها إلى الجسم . ولجئها إزاء ديانا ، وفوق كل شيء ، لرفضها أن تضعه هو في المقام الأول .

ودخلت ديانا المنزل مساء الاثنين وقد اجتاحتها قوة غاضبية ... وسألتهما

مادلين في خصر عينا بها، فاستدارت نحوها في غضب وقالت ثائرة:

«أبنته صديقك الغالي خرجت بالأمن مع جيف».

«خرجت مع جيف؟ كيف حدث هذا؟ ومن أين لك أن تعرفي وكنت في القرائن».

فاخر وجهها وقالت:

«أخبرني جيف، قابلته في ساعة الغدا، ولم يستطع الانتظار لبوح بالأمر، كان ينتظرني في السوق أمس عندما مرت به ماريا، ووالدها في سيارتها الأنيقة، فأبلغته ماريا بأني مريضة ولن أحضر، واقترحت عليه أن يذهب معها وتوجهوا إلى لندن وأنفقوا بعض الوقت في التزهة ثم تكفل لها السيد فيتال بعشاء في أحد محلات الشواء الفاخرة بالويست إند. كان يودي أن تستعني جيف، كان يتفاخر بما حدث، ويقول إن ماريا رائعة».

ولم تستطع أن تقضي في الحديث لتقول لأُمها إن جيف بدأ يلتفت في حبه لها وقال لها ما معناه إن ماريا ليست مثلها، وإنه لو انفرد بها لاستطاع أن يستمتع حقاً كما قال إن ديانا مغرطة الاحتشام ويتعين أن نصحو للحياة وأنتكف عن العيش في عالم الأحلام. كانت ديانا شابة يساورها الارتباك، لم تستطع أن تحدث أهدأ بما جرى فشعرت بأن الحياة في هذه اللحظة بالغة التعقيد.

قالت مادلين في تشكك:

«حسنًا، هذا لا يقلقني، وإني لا أكاد أعتقد أنه سيكون لماريا شأن كبير مع جيف إيريسون، إذا لم يكن لأبيها شأن بالموضوع في أي حال».

شعرت ديانا بخديها يحترقان، وذكرى محاورتها مع نيكولاس فيتال هذا الصباح لا تزال ماثلة في ذهنها، فاحتلست أنظر إلى أمها. كان يبدو أنه لم يحدثها هاتفيًا وكانت تتوقع أن يفعل وتتوقع أن تزاحم أمها المتعذب حقاً لكنه لم يفعل فتساءلت إن كان قد حمل ما قالت على حمل الجد، وبقيت هذا. حتى ما حدث من جانب جيف، لن يبدو شيئاً عندئذ. ومن الواضح أن مسلك أمها يوحي بأن كل شيء قد انتهى.

يوم الأربعاء السابق في عيد الفصح بدأ العرض المسرحي الذي تقوم فيه ديانا بدور في الكلية. وكان على مادلين أن تذهب، ولما كان أدريان

ذاهباً بدوره اقترح أن يذهب معها. وافقته مادلين بغير اكتراث فدهش، ولم يكن يوسعه أن يدرك ما حدث من سوء بينها وبين نيكولاس فيتال، لكنه كان يستطيع أن يحكم من وجهها القاتم وعينيها المتهاككتين أن أمراً سيئاً حدث، وقرر ألا يقول شيئاً أملاً أن تعود الأمور إلى طبيعتها بينها وبينه.

وكانت مادلين موقنة أنها لن تستطيع التركيز على المسرحية، ولكنها لم تستطع أن تتراجع، ولما كانت ديانا قد بدت معقولة على نحو مريح طول الأسبوع شعرت بأن هذا أقل شيء تفعله إزاءها، فلابقاء على الانسجام بينهما. وبينما كانت تنزين للأمنية أخذت تدرس تعبيرات وجهها في المرأة. كانت عيناها تحيط بها هالتان سوداوان بسبب افتقارها إلى النوم، فجعلتاها مظهرًا متهاكًا، وشعرت أن كل سنة من سنواتها الثلاث والثلاثين تظهر عليها، وكان شحوب وجهها يؤكد الأعياء البادي في عينيها، فانصرفت عن صورتها في المرأة وهي تشعر بالهزيمة.

ارتدت المعطف الأخضر الغامق ونزلت لمقابلة أدريان عندما جاء في سيارته، ولم يكن يوسع. أدريان، وهو يحبها، إلا أن يلاحظ حالة التعب التي تعانيها، ووجد نفسه يتمنى أن يرى نيكولاس فيتال ما فعل. توجهوا في صمت ودي إلى الكلية، وكل منهما مشغول بأفكاره، وكانت القاعة تفص بالحضور، ولكن متعدي أدريان كانا في الصف الأمامي محجوزين لها. وما كادا يقتريان من المقعدين حتى هتف صوت:

«هبة يا مادلين».

استدارت مادلين وقلبها يخفق بشدة، وطلبت للحظة أنه نيكولاس، وبدلاً من ذلك وجدت نفسها وجها لوجه أمام هاري كامنغر، قالت بهلوه وهي تغتصب ابتسامة:

«أهلاً يا هاري».

كان مع آل ماسترسون وسيدة أخرى شابة، ولكنه نهض من مقعده ليتحدث إليها. ومضى أدريان في سيرة ليتركها وحدها، وتساءل هاري بجد وهو يدرس وجهها يقضول:

«ماذا حدث يا عزيزتي».

تتمت يارتيك:

«ماذا؟ لا أعرف ماذا تقصد»

«تعرفين بالتأكيد، إنك لم تقابلني نيكولاس أخيراً. أما أنا فإبليتة، إنه يبدو كالأدب المصائب في رأسه، ولكنه لا يتحدث أحداً بأن هناك ما يسوء. وأعتقد أنه في وصفي أن أحزر الآن»

غاص قلب مادلين وهو يواصل حديثه:

«وصلت أمة اليوم من إيطاليا، وأحضرت معها سيدة هي ابنة عم نيكولاس من بعيد، وأنشور أنها تأمل في أن ترتب شيئاً مشيراً للاهتمام بينهما»

ثم تابع كلامه بصوت خفيض:

«اتصل بي تليفونياً. ولا تدعي أمة تفتق غرضها مستفيدة من الظروف»

نيكولاس بكاد يحس جتونه صدقيني»

صمت مادلين يدها معاً وقالت:

«ولماذا إذا لا يتصل بي هو؟»

هز هارفي كتفيه قائلاً:

«ربما يلومك على ما حدث. أنت وابنتك. نيكولاس ليس متكيراً ولكنه لن يغفر رأسه بالتراب أمامك. ولهذا فأنا أعرف أن هناك شيئاً كبيراً يزوجه»

هزت مادلين رأسها وقالت:

«هناك بالفعل. أوه يا هارفي. هل تعتقد حقاً أنه يتعين علي أن أتصل به»
«طبعاً»

ثم اختطف نظرة إلى أدريان وقال:

«هل قال لك هذا الفتى شيئاً آخر؟»

«كلا، بالطبع لا، إنه لا يعرف شيئاً عن ذلك»

وابتسم هارفي ثم قال:

«حسناً. كنت سألكه في اتقه»

ثم قبض بأصابعه على راسها وقال:

«نيكولاس فتى عظيم. أعرف أنه أفضل أصدقائي، عملنا معاً سنوات، لذلك فمن الطبيعي أن أتحيز له. ولكن لم يسبق أن انتابته مثل هذه الحالة بشأن فتاة»

من قبل»

رست مادلين على شفتيها ابتسامة واستدار أدريان في مقعده في هذه اللحظة، وقال:

«من الأفضل أن تأخذي مقعدك الآن يا مادلين. العرض على وشك أن يبدأ»
تطلع إليها هارفي. ينتظر الجواب فأومأت له برأسها ببطء، فغمغم:

«عظيم»

ثم انصرف إلى مقعده بعدما خنط على راسها. واتخذت مادلين مقعدها. وقال أدريان والأشوار تحبو تدريجياً»

«أرسلت تذاكر كثيرة للمديرين، وأتساءل لماذا لم يأت السيد هنتال بنفسه»
«أمة ستصل من إيطاليا اليوم، وهازي. هو مساعده، لذلك فأظن أنه يقوم بكل هذه الواجبات»

فأوما أدريان برأسه وارتفع الستار وكانت المسرحية جيدة، ولكن مادلين لم تفهم منها شيئاً تقريباً. لقط انتباهها بأمورها الخاصة. تستطيع إذا شاءت أن تتصل بنيكولاس غداً. ولكن السؤال الآن هو ماذا في وسعها أن تقول؟

ولم يكن لدى نيكولاس وقت صباح الأربعاء للذهاب إلى مطار لندن والترحيل بأمة، وأرسل ابنته هاريا في السيارة التي تخص الشركة مع السائق. ولذلك كانت مفاجأة له عندما عاد إلى الفندق وقت الغداء ليجد أمة تنتظر ليس وحدها ولكن معها كذلك صوفيا ريدولفي.

قبل والدته وسمع صوفيا بأن تقول خذ. كانت هذه حالة طارئة لم يعمل لها حساباً، صحيح أنه كان يعلم مدى اهتمام والدته بزواجه من صوفيا لأنها مناسبة تماماً، لكن نيكولاس لم يكن يريد لأحد أن يخاطب له، حتى وإن كان يعجب بصوفيا لأسباب أخرى.

كانت تبدو جذابة في رداها من القطيفة الحمراء وكانت لا تزال ترتدي معطفها من فراء الثعلب القضي. فأدرك نيكولاس أنها من طراز النساء اللواتي ينبغي أن يتخذ منهن زوجة. فهي تستطيع أن تكون المضيفة المثالية للحفلات الاجتماعية التي يمكن أن يقرضها عليه الزواج. وتعزف الشيء الصواب الذي يمكن أن تقول. لرفاقه في العمل. وكان انتحارها من والدين موسرين يستبعد أي مشكلات ذات

طبيعة ارتزاقية. وكان موقفاً من أنها ستكون ماريا زوجة أب تثير الإعجاب.
لماذا إذاً يجعله فكرة الزواج منها يشعر بالغثيان؟ إنه يعرف الإجابة بالطبع.
فقد قابل مادلين بهت كل النساء أمامه وأصبح لا يساوين شيئاً. مستحيل
أن يعيش الآن مع امرأة أخرى. حتى في هذه اللحظة تاق جسمه كله طلباً
لمادلين. لقرينها، ودفتها، وجهاً. لماذا لم تتصل به لتقول له إنه معها كانت
العقبات التي تقفها ديانا في طريقها ستزوجه فوراً بدون جدل؟
وتطلع إلى والدته، كانت سيدة طويلة قوية البنيان، تحمل سمات أسلافها.
وكانت جميلة رغم أنها في الخمسينات من عمرها. حاولت لسنوات أن تسيطر على
نيكولاس. ولجعله يدرك مسؤولياته. لكن بدون جدوى. كان نيكولاس
مفرط التشبه بها على نحو لم يسمح لها بأن تهين عليه وكان يحطم قلبها أن تراه
يضيع حياته بدون أن يكون له أبناء يحملون سلالة آل فيتال. وكانت تأمل
في إحضار صوفيا معها إلى انكلترا لعله يستعيد صوابه ويدرك كم هي
ملائمة لأن تصبح زوجته وأم أولاده.

قالت له :

«الآن وقد لمست رفضك الانتظار عدة أيام قلائل للسفر معي قررت أن تكون
صوفيا رفيقتي. وفي وسعها أن تعود إلى إيطاليا معك.»
خفف نيكولاس ياقة قميصه عن رقبته. تحت رباط عنقه. وغمغم :
«حقاً، إنني مسرور أن كانت صوفيا رفيقتك.»

ثم مر بيده على ظهر عنقها وتطلع إلى ماريا كأنها ينتظر منها الإطعام.
ولكنها كانت تعرف ندائير جدتها فرفضت كتفها خفيفاً بطريقة يائسة. بينما قال
نيكولاس :

«لقد لا احضر إلى إيطاليا في أي حال.»

قالت صوفيا :

«أوه يا نيكولاس، لم لا؟ إنك تعلم أننا كنا نتطلع إلى ذلك، كنت أرى أن
اجتماعنا معاً نحن الثلاثة سيكون أمراً رائعاً»

بلل نيكولاس شففيه الجافتين وقال :

«حسناً، طراً أمر لم يكن متوقعاً، فلنذهب الآن لتناول الغداء في المطعم. وفي

وسعنا أن نتأقش هذا فيما بعد، بعد أن نرتاح. لا بد أنكما تشعران بنهاية التمتع من
رحلتكما.»

وتناولوا الغداء. ثم ذهبت المراتان بعد ذلك إلى غرفتيهما للراحة بدون أن تحوفا
في خفلة. وشعر نيكولاس بضرورة هذه الفسحة المتاحة من الوقت وصحب
ماريا إلى جناحها. وكانت الأنسة سايكس تنص في مقعد ذي مسندين
لكنها استيقظت عندما دخلا. وكان نيكولاس قد ألف أن يغيطها بدون شفقة
لكنها شعرت اليوم بأن ذهنه منصرف إلى أمور أخرى كما كان بالفعل طوال
الأسبوع.

ارتدت ماريا في مقعد ذي مسندين وقالت :

«حسناً يا نيكولاس، جدي تعزيم أن نحرز بعض التقدم هذه المرة. ذهبت إلى
جد إحصار صوفيا معها. أعني، إنني لو كنت صوفيا لكنت في حال يرثى
لها.»

عيس نيكولاس وقال :

«يجب ألا تناقشي أموراً كهذه، إنك لا تزالين بعيدة عن تمييز الأمور.»

قالت الأنسة سايكس في رقة :

«إنها تتظاهر فقط ولكن الواقع أنها بريئة تماماً.»

بدأ الاستياء على وجه ماريا بينما انهمم نيكولاس. وقيل في طعنة
رسمية :

«نعم، أنا واثق أنك على صواب يا آنسة سايكس...»

ثم تهدد بتناقل وقال :

«يا إلهي، ماذا سأفعل الآن؟»

واستدار وعطى خارجاً من الشقة وصلى الباب خلفه، فتشهدت ماريا
كذلك وقالت في أني :

«مسكين نيكولاس وقع أمر خطير بينه وبين مادلين. وأراهن أن ابنها تلك
المتعالية لها ضلع في ذلك.»

يوم الخميس كان على مادلين أن تذهب إلى العمل لفترة الصباح فقط
وكانت تشعر بأنها كتلة من الأعصاب المرفقة. استعادت ما قاله هارفي

مرات طوال الليل. وتذكرت أنه من المقرر أن يطير نيكولاس إلى روما اليوم، فأدركت أنه ليس من المرجح أن تستطيع الاتصال.
وقررت أن أحاول ذلك ولو مرة فعدت أصابعها المرتعشة وأدارت رقم الفندق في الحاشية صباحاً. فرد عليها موظف الاستقبال وأبلغها أن السيد فينثال ليس في الفندق، وأنه يعتقد أنه ذهب إلى المصنع. واتصلت به هناك بعد أن بحثت عن الرقم في الدليل. فردت عليها عاملة التليفون :
«هل يمكن أن أتحدث إلى السيد فينثال من فضلك»
«من المتحدث»

«قولي له مادلين ... إنه يعرف»

طلبت منها العاملة أن تبقى على الخط فانتظرت بصبر نافذة. وكانت مرت ساعات قبل أن يرد بصوت أجش وكأنه غير مصدق.
«مادلين ؟ صحيح ؟»

أوشكت الساعة أن تستقط من يدك. كان ارتياحها عظيماً. إنه لا يزال في انتظارها. لم يرحبها بعد إلى إيطاليا. غمغت بصوت خفيض :
«نعم، إنه أنا... كيف حالك؟»

بدا نافذة الصبر.

«على ما يرام يا مادلين ، لماذا اتصلت بي ؟»
«إنني... إنني أود أن أراك. هل لديك وقت؟»
«بالطبع، متى؟»

«حسناً، اليوم، أي وقت سيكون مناسباً لي»
«ما رأيك أن تلتقي الآن؟ هل أنت في العمل؟»

كانت في ضوءه نيرة العجلة والاحراج. لقد كان هارني محققاً فهو يريد أن يراها بالفعل.

«نعم إنني في العمل، ولكن...»

«ولكن لا شيء... سأكون هناك»

وأغلق الساعة قبل أن تعترض. فجعلت مادلين المحقق في الهاتف يداخلها السرور. ثم استجعت قواها. إذا كان سيأتي فالمسافة ليست بعيدة ومن

الأفضل أن تقابله في الخارج. ولم يكن لديها الكثير لتفعله فوثبت مكتبها وأعدت الرسائل في مكانها ليحضرها الباب. وارتدت المعطف وخطت مترددة إلى مكتب أدريان. وفتحت الباب وسألت :

«هل سيكون الأمر على ما يرام إذا انصرفت الآن؟»

نطلع إلى ساعتها. وبدأ مأخوذاً وهو يقول :

«الساعة لم تتجاوز العاشرة والثلاث يا مادلين»

«أعزف ذلك، ولكن هذا أمر عاجل»

قطب أدريان عينيه وقال :

«لا بأس، هل سأراك في عطلة نهاية الأسبوع؟»

قالت في ارتباك :

«تعال إلى الشقة، فإذا كنت في المنزل تعلم أنك دائماً موضع ترحيب»

«حسناً جداً»

وعند أدريان إلى خطاباته وأغلقت مادلين الباب يساورها شعور بالارتياح. إذ كانت تتوقع أسئلة كثيرة عن رحيلها المبكر.

وكان اليوم ربيعياً رائعاً في الخارج. دافئاً مشمساً. وداعب أنفها شذى الزهور من أحواض المدرسة. وشعرت فجأة بقلب الحياة وتدفقت الحرارة بعض الشيء إلى وجنتيها الشاحبتين. ولكن غيبتها فضحت حالة الانهك والعبث العاطفي الذي كابته في الأيام القلائل الأخيرة.

توقفت سيارة شرايدان الحمراء أمام أبواب المدرسة بعدما غادرت الشيء يتوان فهرعت إليها وأندست بجوار نيكولاس.

حدقت فيه ظريفاً وهي تستمتع برأه. بينما تفحصها بدورها. ثم من بأصابع رفيعة الحلات السوداء تحت غيبتها وقال في لين :

«إنك خفيف، أليس كذلك ؟»

لم تثن مادلين في قدرتها على الكلام واكتفت بهز رأسها. وتهدد نيكولاس ثم تطلع إلى نوافذ المدرسة ومضى بالسيارة بعزم بعيداً عن البلدة متعطفاً عن الطريق الرئيسي إلى الخارات الريفية بين سياج من الشجيرات ذات الخضرة الربيعة. أغصانها تحسك بالسيارة الكبيرة وهي قضى... وشعرت مادلين

بمخاوفها تلذّب في بهجة الصباح كان الربيع «اكثا» وهي مع الرجل الوحيد الذي تحت أن تكون بصحبته لا يمكن أن يحدث الآن أي ضيق.

انصرف نيكولاس بالسيارة إلى رقعة عشبية تحت أغصان شجرة بلوط ضخمة، وأوقف المحرك واستتب السكون إلا من تغريد الطيور وصوت جزار وحيد على البعد يمر عبر الحقل. وتهدت مادلين واستندت إلى مقعدها ثم تطلعت إلى نيكولاس. كانت هناك خطوط من الاعياء حول عينيه، فقالت في صوت خفيض:

«ألا تزال تريدني؟»

فصأوه ووضع ذراعه على ظهر مقعدها والتفت إليها، وأخذ يربت بيده على شعرها الناعم، وقال:

«هل أريدك؟ بالله إنك لتعلمين أنني أريدك.»

وأخى رأسه وأضاف:

«كان في وسعي أن أقتلك لما فعلته بي.»

فتحت عينها على مضض وتطلعت إليه بلا خوف، وقالت:

«يا حبيبي، لا يمكن أن تكون على هذه الدرجة من القسوة على نفسك بالطبع.

إنني أحبك، وسأزوجه في أي وقت تشاء.»

فايضم نصف ابتسامة وهو ينظر في عينها وقال:

«لم أكن أستطيع قتلك في أي حال. إنك لأعز علي من أن أفعل ذلك، مهما كان قاركا.»

سحبت مادلين أنفاس سيكرتها وهي تشير بالدفء والنعاس، وقالت:

«ستخبرها اليوم، بلا توقع.»

ثم تيهت فانتصبت فجأة وقالت وعيناها مليتان بالحرف:

«ولكنك ذاهب إلى إيطاليا اليوم.»

قال وهو يجذبها إليه:

«أستريح، ليست ذاهبا على الأكل ليس اليوم.»

«ولكن... ولكن كيف؟»

فجذب كل الدبابيس من شعرها وألقاها في أرض السيارة، فأطبق بذلك

شعرها وقال:

«أعتقد أنني كنت سأقتل بك... أسدليه يا حبيبي حتى أستطيع أن أغلقه بأصابعي.»

احمر وجه مادلين على نحو زادها فتنة، وأطلقت بسرعة ما بقي من عقيدات شعرها وهي تمر بيدها خلاله وتساءلت:

«أهذا أفضل؟»

«أفضل بكثير...»

ثم عانقها وقال:

«بالله إنك تعلمين أنه لم يكن في وسعي أن أغامر البلاد بدون أن أراك مرة أخرى، وإن كنت قد سررت لأتلك اتصلت بي، أردت أن يكون لك الشعور نفسه.»

ربتت على خده قائلة:

«أردت ذلك... ولكنني أبدو في حال لا تسر.»

قال وهو يداعب أذنها:

«إنك متعبة فقط... ألا تستطيعين النوم؟»

هزت رأسها، فقال في لين:

«ولا أنا، إلا أن هذا يمكن علاجه بسهولة.»

فايضم قائلة:

«أعرف يا حبيبي... وفي أجل صورة.»

وعانقها مرة أخرى، وكل منهما يشعر بأنه يتقانى في الآخر.

وتناولوا القهوة في البلدة وعادوا إلى شقة مادلين في نحو الثانية عشرة. ولم تكن ديانا في المنزل وإن كانت مادلين قد توقع أن تكون هناك بعد أن أغلقت الكلية أبوابها للعطلة الصيفية في اليوم السابق. قالت وهي تخلع معطفها:

«لا بد أنها ذهبت تسوق، هل تود أن تبقى لتناول الغداء أم هل تعود إلى الفندق علمت أن لديك ضيفة أخرى غير والدتك.»

«ومن أخيرك بذلك؟»

« هاري ، قابلته ليلة أمس في المسرح »

« وهل كان هذا هو السبب في أنك قررت الاتصال بي؟ »

« غففت بصدق »

« جزئياً ، لكنني لم أكن أحتاج في الحقيقة إلى مبرر ، فإني ظلت أتوق إلى رؤيتك طوال الأسبوع »

« طرأ الأسبوع »

قال نيكولاس وهو يخلع معطفه :

« حسناً »

« ولكن ماذا عن هذه الفتاة الأخرى ؟ هل كنت تفيها؟ »

« كلا »

فتحدثت مادلين وقالت :

« لا تكن وضيقاً »

فقال وهو يجذبها إليه :

« إنها مرشحة أمي لتكون زوجة نيكولاس هيتال »

« أوه... كان هاري محققاً إذا »

قال :

« نعم ، إذا كان قد قال ذلك ، هل تعتقدن أنها قد تنجح في الاختيار؟ »

أحكمت مادلين ذراعيها حول عنقه وغمغمت بقوة :

« لا... إذا كان لي شأن بالموضوع »

« إن لك كل الشأن بالموضوع ، كلا يا حبيبتي ، أمي العزيزة ، وماريا ، و

صوفيا ، كلهن في الطريق إلى روما في هذه اللحظة »

ذهلت مادلين :

« ماذا؟ ولكنني كنت أظن أن والدتك في طريقها إلى أمريكا »

« كانت ، ولكنني عندما رفضت العروبة إلى إيطاليا مع ماريا ، لم تستطع

والدتي أن تدعها تذهب وحدها ، ثم إنني كلمتهن بشأنك »

« أخفاً فعلت؟ يا للسوء! وماذا قلن؟ »

اجتمع نيكولاس ابتسامة عريضة وقال :

« صغفن في البداية ، ولكنهن سيذعن ، ماريا تقوم بدور كبير في العلاقات

العامة »

دفنت مادلين وجهها في صدره وقالت هامسة :

« أوه يا نيكولاس ، إنني أحبك »

« أأمل ذلك... أعني بعد أن اشتريت تصريحاً خاصاً »

« تصريحاً خاصاً؟ أكنت موقناً من تخيبي؟ »

هز رأسه ، وبدأ جاداً للمحظة :

« لست موقناً على الإطلاق يا حبيبتي ، ولكن عندي الأمل »

« تحققت أمالك... أمأكد أنت من أنك تريد ما تفعل؟ »

« طبعاً ، وأنت؟ »

« أوه ، إنني واثقة »

قالت ذلك وهي لا تكاد تصدق الحقيقة ، فما لبث أن أبعدها عنه قائلاً :

« إذهي وأعدي الغداء يا حبيبتي ، إنني مجهد بشر »

نظرت مادلين في الساعة ليرى ما يمكن أن يكون لها في الغداء ، كان هناك

بعض اللحم وكثير من الخضروات ، فقررت شئ اللحم وإعداد الخضروات في إناء

الضغط بالبخار ، وفدرت أن الفاكهة المعلية والكريمة كهيئتان بإعداد الحلوى ،

وبعد أن اطمأنت إلى أن الوجبة يجري إعدادها عادت إلى غرفة الجلوس ، وكان

نيكولاس ممدداً على الأريكة يقرأ صحيفة ، فابتسمت ، وقالت وهي تطلق

ضحكة عالية :

« لا أكاد أصدق أن كل هذا يحدث ، عندما استيقظت في الصباح كنت أختلج ما

سأفعله لي عندما اتصل بك تلفوياً »

« وماذا كنت تتوقعين أن أقول؟ »

هزت كتفها وقالت :

« لا أعرف ، ربما أنك لا تريد رؤيتي بعد الآن »

« أوه لو كنت تعلمين »

قال ذلك متأوهاً وانحنى إلى الأمام ليمسك بها وهي قرأ أمانه ولكنها راغت

منه وهرعت إلى غرفة النوم ، وقالت تناديه وهي تغلق الباب :

« لن أشتغق أكثر من دقيقة »

واغتسلت وارتدت بتطلوناً فضفاض وبلوذة ترسيل وراجعت في ذهنها ما
سبقوله لديها. لا بد أن مشاة ستحدث بينهما، ولكن مهما حدث فإنها تنوي أن
تكون حازمة، فلا فائدة من المداواة.

وبينا هي تضع بعض الأحمر الخفيف على شفتيها انفتح الباب وظهر
نيكولاس على عتبة، وقال ساخراً:
«إناء البخار يوشك أن يتفجر، وقد أطفأته ولكن بحسن أن تصفني بنفسك من أن
كل شيء على ما يرام».

ابتسمت مادلين مداعبة وقالت:
«ألا تعرف يا حبيبي إن كان الأمر على ما يرام، أم أنك لا تفهم في شغل البيت؟»
فصمخ وهو يهز كتفيه:
«أعتقد أنني لا أفهم».

«سيكون الأمر على ما يرام... ولكن هل سيكون لي زوج عاجز قاماً؟»
فصمخ نيكولاس عينيه يساوره استياء مشوب بالسرور وهي تبهض،
وقال وهو يتقدم نحوها:
«هذا يتوقف على ما تعنين بكلمة عاجز».

فتراجعت وهي تضحك مداعبة، وبينا كانت تفعل ذلك سمعت صوتاً في غرفة
الجفوس، فتوقفت ونظرت إلى الباب متجاوزة نيكولاس، ونسألت وهي مقبلة
الجبين:
«لا تحاولي إغافتي...»

قال نيكولاس ذلك وهو يتسم ويواصل التقدم نحوها، فراجعت منه وهي
تفعل الانزعاج. كانت عارية القدين وكان يبدو بالغ الضخامة وهو يقترب
منها واضطدم باطن ركبتيها بأحد الأسيجة ففقدت توازنها وسقطت وهي تنهق
على الفراش واعتذرت له متوسلة، لكنه قال:
«والآن، أريد اعتذاراً حقيقياً».

فقال مقطعة الأنفاس:
«حسناً، دعني أنهض».

«لا، قولني بعددي، إنني أسفة للغاية يا سيدي، ولن يحدث ذلك مرة أخرى».

فضحكت مادلين في حشوت وقالت:

«إنني أسفة للغاية يا حبيبي، ولن يحدث ذلك مرة أخرى».

«لم تكن الكلمات مني أن أغيرها».

فأطلق يديها وجلس بجوارها قائلاً:

«إن يكون هذا ضرورياً، والواقع أنني أنقضها بطريقتي».

ثم قال:

«عاشا سخطن أيتنك إذا وجدتنا هناك».

فوقعت جسمها وغالت في ارتعاشة بسيرة:

«ومن يلومها؟»

فأولم نيكولاس برأسه واسترخى على ظهره وقال:

«ألا عجب أن تساورها أفكار غريبة عن الزواج إذا كنت أنت وجوز لم تتواجدا

معاً في غرفة واحدة».

جلست مادلين وقالت:

«ألا أظن أنها فكرت في ذلك، ثم إن هناك كثيراً من الناس لهم فراش متبادل».

«أظن ذلك، ولكنني أعتقد أنني لو كنت مكاتبها لغيرت الأمر قليلاً كان هناك

فارق رهيب بين سنيكما، وعلى فكرة، كم كان عمر ذلك الشيء... بيتر».

«هو السابعة عشرة على ما أعتقد، لماذا؟»

فهر نيكولاس كتفه وقال:

«لا أدري، ربما كان مجرد «ضول» شيء».

ثم ابتسم وجلس قائلاً:

«كل ما يحيط بك يفتني».

فرمته بإلتصام راضية وقالت:

«أحناً، هذا أمر لطيف».

«أليس كذلك؟ إنني أظن لو كنت أعرف، جو».

«لماذا؟»

«حسناً، إنه يبدو لي شخصية أصيلة، ليس هناك كثير من الرجال يمكن أن يفعلوا

ما فعل».

تنهدت مادلين وقالت :

«كلا، كان جو رائعاً، لأنها عندما أفكر كم كنت حقا»
«لَمْ تكوني حقا، كنت فقط صغيرة جداً، وخائفة جداً»

فنهضت وقالت :

«هذا صحيح، من الأفضل أن أعد الغداء الآن، فستكون ديانا هنا بين لحظة وأخرى»

وتقطع كلماتها صوت الباب يفتح، وتطلعت مادلين في إعياء إلى نيكولاس، فنهض على الفور وتقدم بسرعة إلى باب الغرفة، ودخل غرفة الجلوس وهو يتوقع أن يجد ديانا، ولكن الغرفة كانت خالية، فعاد إلى مادلين قائلاً :
وهو مقتطع الجبين :

«لا يوجد أحد هنا»

استمع وجه مادلين بشكل واضح، وقالت :

«أوه... كانت هي التي دخلت إذاً عندما قلت لك إنني سمعت شيئاً»

فجهم وجه نيكولاس، وقال :

«هل تعتين أن ديانا كانت تقف هنا تسترق السمع طول الوقت؟»

وضعت مادلين يدها على جبهتها وقالت :

«في الغالب يا نيكولاس، هل تدرك معنى ذلك؟ لا بد أنها سمعت كل كلمة قلناها»

قال نيكولاس غاضباً :

«وماذا في هذا؟ لا بد أنها ارتاحت على الأقل لأننا لم نكن نفعل شيئاً»

هزت مادلين رأسها كالحمومة وقالت :

«كلا، كلا... ألا تذكر، كنا نتحدث عن جو وعن والد ديانا الحقيقي، ولست أتصور من حديثنا أنه كان من الصعب أن نجمع واحداً إلى واحد»

أغلق نيكولاس للحظة وقال :

«يا إلهي، إنني لأسف يا مادلين، لقد نسيت، إن معرفتي ديانا تجعلني أعتقد أنها قد هولت الأمر أكثر على الأرجح»

ثم هز كتفيه قائلاً :

«هذا على الأقل جعل مشكلة إبلاغها بحقيقة أصلها وشأنها»

أتاحت مادلين عتمة، يا هلول ما حدث، كان أجسب بها أن تعلم أن الهدوء المثالي الذي كان لها من قبل لا يمكن أن يدوم، وقال نيكولاس بحزم وهو يرتدي معطفه :

«سأذهب لأحضارها»

التفتت إليه مادلين قائلة :

«هل لك أن تفعل ذلك؟ إنني لا أحب فكرة ذهابها على هذا النحو»

اجتمع لها نيكولاس مشجعاً وقال :

«ولا أنا، لا تظلي يا حبيبتى، سيكون كل شيء على ما يرام»

وبعد أن ذهب أخذت مادلين تتطلع من التوالد المظلة على الحى، وشاهدت نيكولاس يخرج من المبنى، ولكن لم يكن هناك أثر لديانا، ونظير نيكولاس في اتجاهي الطريق ولم ير شيئاً، فمشى إلى سيارته واندس وراء عجلة القيادة وما لبث أن غضى بها بعد لحظات

ومرت نصف ساعة قبل أن يعود وحده، وذهبت مادلين تفتح له الباب وتطلعت في يأس إليه فقال وهو يفتح أزرار معطفه :

«لقد تبحرت في الهواء على ما يبدو بحيث عنها في كل مكان، من المستحيل أن تكون قد ذهبت بعيداً قبل أن أخرج، ورأيت أنها خفت أننا ستبحث عنها فانتظرت في مكان ما من البناية حتى خرجت ثم تبعني لترصد حركاتي بدلاً من أن أرصد حركاتها»

غاصت مادلين في أخذ القاعدا قائلة :

«وماذا تفعل الآن؟»

«نتنظر، نبدأ بتناول الغداء، ولا بد أن تعود عاجلاً أم آجلاً، فديانا ليست من الطراز الذي ينجو راحة البيت لوقت طويل»

«أعتقد ذلك؟»

«بالطبع... تلقت ديانا ضربة سيئة بلا شك، ولكن ليس في وسعنا أن نفعل شيئاً حتى تعود»

صاحت مادلين في يأس :

«ولكن هل ستتركني أساعدها؟ فأنا سبب مشكلتها في أي حال»

هز نيكولاس قائلاً

«لا أعرف ديانا كما تعرفونها. ولكنني أقول إنها قادرة على أن تصمد لشيء كهذا. إنها ليست فتاة مفرطة العصبية، اعتادت فقط أن تحقق أموراً بطريقتها. وليسوف تألف هذا الأمر. وقد يكون هذا أفضل للجميع. فقد تنظر إلى نظرة أرق بعد أن تعرف أن أباهما لم يكن الشخص المثالي الذي ظنتم»

وتطلع إلى مادلين بفهم وتعاطف قائلاً

«هل أبداً كوحش لا قلب له؟»

رسمت مادلين على شفيتها نصف ابتسامة وقالت:

«كلا، إنني أترك أنك تحاول فقط أن تجعلني أشعر بارتياح أكثر فلتناول الغداء إذا»

١١ - ديانا فوق الشجرة

وما أن حلت الساعة الثامنة ذلك المساء حتى كانت مادلين قد فقدت أعصابها تماماً. خرجت مع نيكولاس في السيارة بعد الظهر يبحثان ويتقبان في كل مكان في أوتربري. ذهبا إلى نادي السبعينات وتنفذا سائر المقاهي بدون جدوى. لم يكن هناك أثر لديانا. وكان الجو قد بدأ يحطر في وقت تناول الشاي وأصبح هناك الآن سيل متظم يغمر كل شيء. عادت مرتين إلى المسكن للتحقق إذا عادت أثناء غيابها. لكنها أصيبت بخيبة أمل. ولم تستطع مادلين أن تفكر في مكان آخر يبحثان فيه. وأخيراً قالت:

«لا أظن أنها ذهبت إلى بيت جيف»

قطب نيكولاس جبينه قائلاً

«أوه، نعم، هذا القتي الذي اصططحته معنا يوم الأحد. بدا صديقاً جميلاً لها»
«أجل، إنها يخرجان معاً منذ ثلاثة أشهر، وإن كان الأمر بينهما بلا جدوى. وهي لم تظهر له الود منذ أخيرها بخروجه مع ماريلا. ومعك، ولا أعتقد أنها خرجت معه منذ ذلك الحين. كانت مشغولة بالطبع في المسرحية ولم يكن لديها وقت»
«جسناً، هل لديهم هاتف؟»

هزت مادلين رأسها:

«لا أظن ذلك، لكنني أعتقد أن العنوان هو طريق «بولار» ولست متوقفة تماماً من الرقم. ربما يكون ١٤»

جاءه نيكولاس لاختواء صبره النافذ ، قائلاً :

«وأين هي الآن ؟»

«وماذا يهمك من ذلك ؟ إنها بلا أب ، من أنت ؟»

التفت نيكولاس وأشار إلى مادلين لتلحق بهما وقال :

«أنا صديق والدتها. هذه السيدة سكوت قادمة الآن. ديانا لم تأت إلى البيت منذ وقت الغداء. ولا تعرف أين ذهبت.»

«فهمت.»

أوما السيد إميرسون برأسه ، ولحقت بهما مادلين ، وقال نيكولاس :

«هذا السيد إميرسون يامادلين ، يقول إن ديانا كانت هنا بعد الظهر وأنها تناولت الشاي معهم.»

ثمكت مادلين يديها قائلة :

«حقاً ؟ وأين هي الآن ؟»

وهنا جاءت امرأة من المرءات وجه متورّد ، مثقل بالمساحيق ، وشعر أشقر مصبوغ ، فالتفت إليها السيد إميرسون قائلاً :

«أوه... سارة ، هذه أم ديانا وصديق لها ، إنها يبحثان عن ديانا.»

قالت المرأة وهي تتطلع إليهما وتقيسهما :

«حقاً ؟»

وشعرت مادلين بأنها محسب ماذا يمكن أن تكون العلاقة بينهما وتخرج بأجوبة خاطئة ، فكررت قولها على أصل :

«هل يمكنك أن تخبرينا أين ديانا الآن ؟»

«فهمت من ديانا أن أحداً لن ينتظر عودتها إلا في وقت متأخر. قالت إن أمامكما أموراً مستقومان بها.»

ثم التفت إلى نيكولاس قائلة :

«ويبدو أنها كانت متضايقاً من شيء. فقال جيف إنه سيخرج بها الليلة. ولما كان الجو خطراً سمح لها والثر بأخذ السيارة.»

وكانت تيراتها تبدو فيها السخريّة الوقحة ، ولو لم تكن مادلين في حاجة إلى المعلومات لتركتها وأنصرفت. وتساءل نيكولاس مشابهاً :

أدار نيكولاس السيارة وانحجها في طريق المصنع. وكانت أصابعه تنقبض على عجلة القيادة بشدة. وشعر بالغضب إزاء ديانا ، فيها كانت متاعرها ، لأنها صيبت لوالدتها في مثل هذا الشقاء غير الضروري. تلقت مقاحاة غير سارة ، ولكن هذا لا يحولها الحق في الغرابة تاركة مادلين بدون أي وسيلة للاتصال بها. وأحس أنه يجرّ ديانا بقوة ويحتفها على تصرفها الذي يقتدر إلى التبرير.

وكان طريق بوبلار عبارة عن صف من المنازل ذات أبواب أمامية صفراء ونوافذ بيضاء. وكان رقم ١٤ يشبه سائر المنازل ، فيها عدا ستائر الالامعة وظلالته الجديد.

ترك نيكولاس مادلين في السيارة وذهب بنفسه إلى الباب ، ووقف تحت المظلة لتجنب السيل الذي كان يتهمز على البلدة. وجاء إلى الباب رجل في أواسط الثمن بيا مذهوشاً عندما رأى السيارة الأمريكية الكبيرة عند بابه ، وذلك الغريب الطويل على عتبة.

«نعم ؟ أي خدمة ؟»

قال نيكولاس في لهجة ودودة :

«أمل ذلك عشت أن هناك أسرة تسمى إميرسون تقطن في هذا المكان لهل تعرف أين ؟»

«أعرف حقاً أنا. والثر إميرسون ، ماذا أستطيع ؟»

«هل لديك ابن يدعى جيف ؟»

بدا على الرجل القلق :

«صحيح ، ما الخبر ؟ هل حدث له شيء ؟»

قال نيكولاس في صبر :

«كلا... لا شيء من ذلك. له صديقة تدعى ديانا سكوت ، ونحن نبحث عنها.»

«حقاً ؟ ليست هنا الآن ؟»

قال نيكولاس بمحدود الأمل :

«هل أفهم من ذلك أنها كانت هنا ؟»

«أوه ، نعم ، كانت هنا من قبل ، تناولت الشاي هنا مع الأم ومعي ، وجيف بالطبع.»

شيفتت مادلين :

«ربما قطعنا في الطريق شوطاً آخر بالسيارة . فقد بحثنا بالفعل في كل المقاهي .»

سندل نيكولاس :

«هل كانت السيارة في حالة طيبة ؟»

شدت السيدة إميرسون كنفها وقالت :

«إنها سيارة جديدة . وهي بالطبع في حالة طيبة .»

«كل السيارات ينفد وقودها من وقت لآخر . ومع ذلك فأين تعتقدين أنها ذهبت؟»

شهد السيد إميرسون قائلاً :

«من المحتمل أن يكون ذلك الأحمق من الغباء بحيث يذهب إلى لندن .»

صاحت مادلين :

«ماذا ؟»

حك السيد إميرسون ذفنه متفكراً :

«تحدث مرة خلال الأسبوع عن ناد ارتاده في لندن عندما كان في آخر عطلة

أسبوعية . ذهب إلى هناك مع بعض الأصدقاء في سيارتهم .»

قال نيكولاس ساخراً :

«سيارتي . . .»

«حقاً؟»

قالت ذلك السيدة إميرسون وهي مذهولة بينما قال نيكولاس للسيدة

إميرسون :

«استمر . أين هذا النادي ؟»

«في حي . . . سوهو . على ما أعتقد . إنك لم ترتد هذا المكان ليلاً . أليس كذلك؟»

«كلا . ولكن ربما أكون قد شاهدت المكان من السيارة .»

«هذا هو الحل الوحيد الذي يمكنني أن أفكر فيه . وإني أسف لأننا لن نستطيع

مساعتكما أكثر من ذلك .»

«حسباً . أعتقد أن أفضل ما نفعله هو السير على الطريق في اتجاه لندن . فقد نراها .»

الساعة الآن تجاوزت التاسعة ولا أظن أنها يتوبان التأخر في العودة .»

قال السيد إميرسون :

«قلت جيف إن موعد الساعة العاشرة . أنا أقلق دائماً عندما يأخذ السيارة .»

طلبت منه أن يعود قبل أن تغلق المقاهي أبوابها .»

تساءلت مادلين :

«في أي ساعة ذهب؟»

رد السيد إميرسون :

«في نحو السادسة . وأعتقد أنكما قد تصادفانها في الطريق .»

تطلع نيكولاس إلى مادلين قائلاً :

«هل نحاول ؟»

«أوه . نعم . بالطبع .»

«تشكركما .»

انضم السيد إميرسون قائلاً :

«أنا موقن أن ديانا ستكون على مايرام بصحبة جيف .»

«وانا أيضاً .»

وأوماً نيكولاس برأسه إلى مادلين يحثها على العودة إلى السيارة . وشعرت

مادلين بعيني المرأة تتبعها فارتعدت . هل يمكن حقاً أن يكون جيف أهلاً

للثقة كما يقول أبوه ؟ لو كان والده أشبه بوالدته لانتابها القلق حقاً .

* * *

تطلعت ديانا بضيق إلى جيف والسيارة تنهب الأرض عائدة إلى

أوتربيري . وكان المطر خارج السيارة ينهمر بغزارة لم تحدث من قبل . فشمرت

باكتئاب تام . كان يوماً قظيماً . اكتشفت فيه أولاً أنها ليست ابنة جوزيف

سكوت على ما يبدو ثم اكتشفت ثانية أن جيف . رغم وسامته . بدأ يشير فيها

النم .

وكان سامها بدأ في يوم الاثنين السابق عندما ظل يحدثها طويلاً في هيام عن

ماريا فيتال . ولكنها في ذلك الوقت كانت لا تزال تعتقد بأنها تغار أما الآن فهي

تعرف الحقيقة. ذهبت إلى منزل جيف اليوم لأنه الشخص الوحيد الذي شعرت بإمكان اللجوء إليه. وهي الآن تنصني لو ذهبت إلى بيت العم أدريان. فعندما أبلغت جيف ، في ياسها ، الأول المرير ، بأمر أمها ، ضحك بالفعل. ثم لما أفاق قال لما إنه مادام نيكولاس فيثال لم يعترض فيما يبدو فلماذا تعترض هي ؟ شعرت تماماً أنها وحيدة مهجورة ، وعندما اقترح القيام بهذه الرحلة رحبت على الفور لم تكن تعرف عندئذ كيف تواجه أمها. ولكن شعورها الآن مختلف.

قالت لجيف في سخرية :

«حسناً ، كم كان هذا المكان الذي زورناه مثيراً»

نظر إليها جيف في غضب وأصابعه تقبض بشدة على عجلة القيادة. هو كذلك خاب أمله في ديانا ، وأراد أن يؤذي مشاعرها لسخريتها منه :
«كنت حريصة على الذهاب عندما اقترحت هذا المكان. ماذا حدث؟ ألم يكن متوافقاً مع تطلعاتك العالية؟ توقعت أن فتاة مثلك ، من بيت طيب ، لن تألف مثل هذه الظروف البدائية».

كان صوته مقعماً بنبرة التعذيب فقالت وهي تنظر بلا اكتراث من النافذة:
«لا تكن نطلاً».

قال وهو يواصل السخرية منها:

«أسف ، هل قلت شيئاً خطأ؟ بالسبب... هذا المكان انتزعك على الأقل من حالة الكراهية التي كنت فيها عندما أتيت بعد الظهر»
«إنك لاتفهم».

هو ما هذا الذي لا أفهمه. استرقت السمع على حوار يريهما تماماً، فمن أين لهما أن يعرفا أنك لم تنصتي إلى مناقشتها، إن مسترقي السمع لا يسمعون شيئاً طيباً عن أنفسهم ، لا يد أنك قد سمعت بذلك».

ضغطت ديانا شفيتها قائلة :

«أعرف ذلك ، ولكن هل يمكن أن يكون صحيحاً أنني طوال هذه السنوات التي كنت أعتقد فيها أنني ثمرة زواج مثالي ، كنت في الحقيقة مجرد ثمرة لحادثة عارضة في زقاق خلقي».

«كفى عن تهويل الأمور. انسقت في التمثيل كثيراً. إنك تحاولين أن تعيشي

حياتك وكأنها فيلم كبير. أنت فيه البطلة التي يخطئ سائر القوم في حقها، اكبري يادايانا ، إن أملك مجرد بشر. لقد ارتكبت خطأ حقاً، ولكن لاتدنيها على أمر يمكن أن يحدث لأي إنسان ، بالسبب كان في وسعها أن تضعك في ملجأ، أو تدع أحداً يبتلاك ، ولكن لا ضحت بعريتها بالزواج من رجل في سن أبيها، لمجرد إنقاذك من وضعة البتوة غير الشرعية».

حدثت فيه ديانا. هو بالطبع حق. لماذا لم تفكر في الأمر على هذا النحو ؟ إنه صحيح. حاولت أن تضع نفسها موضع البطلة، بينما هي في الواقع جعلت من نفسها حقاً. وتذكرت ماريا فيثال وزفتها السهلة مع أبيها. ليس في العلاقة بينها غيرة تصل إلى حد الامتلاك بل وبدت ماريا مغتبطة لأن والدها عثر على شخص يريد أن يكون معه فلماذا لا يمكنها أن تكون مثل ذلك بدلاً من أن نفسد بقصورها حياة مادلين.

غضبت وهي تنهد :

«أعتقد أنني كنت أناية».

«حسناً. لماذا لم تجعليها يعرف أنك موحدة هذا الصباح».

غضت ديانا شفيتها قائلة :

«كانا معاً في غرفة النوم عندما دخلت. وظننت في البداية أنها...»

وهنا انحمر وجهها وأضافت :

«ثم بدأت أنصت ، وأنت تعرف الباقي».

«وماذا كانا يفعلان؟»

«أوه... مجرد دعابة. وكانا يبدوان سعيدين معاً».

لري جيف قسبات وجهه قائلاً :

«هاك إذا ، لعل كلاميها يحب الآخر. اصغ إلى ذلكأنا أنا أسوق النصيح للمحرومين من الحب».

شعرت ديانا بشيء من الاسترخاء. ففي بعض الأحيان كان جيف يبدو مغفولاً ، وأحسّت بأنها ممثلة له على رأيه المزيف. ولكن من المؤسف أنه صريح هكذا في أمور أخرى. إنها لاتزال في السادسة عشرة ولا ترغب في أن تنفص في علاقة حميمة لبعض الوقت. قال جيف :

«يشقى لك أن تكوني قادرة على فهم مشاعر كل منها الآخر»

ألقت إليه ديانا نظرة جانبية وتساءلت :

«ولماذا؟»

«حسناً ، أنت وأنا ، مثلاً»

«أسفة يا جيف ، ولكن أنت وأنا ، انتهى الأمر بيننا ، أنا معجبة بك ولكنني لا أريد علاقة جادة مع أي فتى لعام أو نحو ذلك ، أريد الانتهاء من تدريبي لأصبح سكرتيرة ، وبعد ذلك قد يتوافر لي الوقت مثل ذلك ، وأعتقد أنني كبرت في هذه الأسابيع القلائل الأخيرة رغم كل شيء»

عيس جيف غاضب ، وقال بوضوح :

«لا توجد فتاة تستطيع أن تقول إنها أنهت أمرها معي»

بدت الدعشة على وجه ديانا ، وظنت للحظة أنه مزح ، وتساءلت :

«وماذا تعني ؟ أنهيت الأمر ، كن غافلاً يا جيف ، فأنت ستدخل الجامعة في الحريف ، ولن يكون لديك وقت لي عندئذ»

هز جيف كتفيه وقال :

«لماذا تريدان إنهاء الأمر بيننا ؟»

«أوه ، لأدري ، يا جيف ، أعتقد أنك أكبر مني سناً بكثير على نحو لا يناسبني لأزال طفلة ، وربما كنت محبسة أكثر من اللازم على النحو الذي تهمني به»

نظر جيف في المرأة ليرقب حركة المرور وراءه ، ثم اعطف بالسيارة خارج الطريق ومضى عبر برك الماء إلى ظل سياج من الحجر وشعرت ديانا برعدة تملكها بغير إرادة منها ، وقالت :

«هيا ، يا جيف ، لا تستطيع التوقف هنا ، إنها لعبة قذرة ، إنني أشعر بالبرودة والبلل وأريد العودة إلى البيت»

«أتريدان ذلك الآن ؟ حسناً سأدكفل بعددتيك ، ولن تريدي عندئذ العودة إلى البيت ، بل ستوسلين لي من أجل إتيان»

بلغت ديانا ريفها بصعوبة ، كان عليها أن تظل لحظة ، لا يمكن أن يكون جيف يتوي حقاً لمسها ، فيها الآن في أي حال يشرفان على طريق غاص بالمرور لن يجروا ، وشعرت الآن بأن صورة بيتها وأمها وحتى نيكولاس فينال

أبعث بكثير على طمأنيتها من هذا الفتى الذي أدركت أنها لا تتكاد تعرفه على الإطلاق ، ليتها لم تكن تقول شيئاً عن عدم عزمها على لقائه مرة أخرى وأجبت ذلك إلى أن يصبحاً فعلاً في أوتربري .. كان هذا هو الذي بدأ الأمر كله بينهما

وفجأة ، وقبل أن تخرج ، جذبها إليه ، وهو يمسك بها على نحو محكم يكاد يخنقها فحاولت الإفلات بكل قوتها ، فملكها الذعر وشعرت بصدره عنه لاقتضاره إلى السيطرة على نفسه ، ولم تدرك ماذا تفعل لا يقاها

صاحت وهي تنه :

«أرجوك ، يا جيف ، دعني أذهب»

نظر إليها ساخراً وقال :

«ولماذا أفعل ذلك ؟ إنك أنت التي جريت ورائي بعد ظهر اليوم ، كنت تلهفين على شخص ترحبن له بهواجسك ، كان ذلك مختلفاً ، أليس كذلك؟»

أخذت تملوئ في قبضته وصاحت :

«كنت أظن أنك تحبني»

«إنني أحبك»

«لماذا إذا تعاملتي وكأنني مشردة وضيعة»

قالت ذلك صانعة وهي تشعر بالغضب لأنه غتتهنها في فكره على هذا النحو ، وليأسها وعجزها معا ، وقال جيف في صوت أجش :

«لست أعاملك هكذا يا طفلي ، لننسى معا ، إن كل الفتيات يحبن شيئاً من التسلية»

أجابت بقوة :

«لست كذلك ، وإذا لمحتني سأصرخ»

اشتد الغضب بجيف ، وضاح :

«كفي عن التشيل يا ديانا ، لن تصرخي ، ثم إنها ستكون تجربة جديدة فليم أضاف مقاومة أبداً من قبل»

اشتعلت ديانا غضباً ، وفي غمرة بأسها أحبت رأسها وعضبت بشدة تلك اليد التي كانت تمسك بكتفها ، وبصيحة ألم تركها جيف للحظة كانت كاذبة لأن تدفع الباب وتقفز من السيارة فتكاد تسقط على الجانب الطيني ذي العشب وكان

الطريق خالياً فلم تجرؤ على الانتظار ريثما تأتي سيارة من هذه الساحة.
وبحركات سريعة دست نفسها بين أغصان السياج وزحفت إلى أكمة الشجر
وكانت تسمع صوت جيف يتنادىها ويتبعها فنهضت على قدميها وبدأت تعدو
كان أمامها بضع ثوان فقط من الحرية فاعتزمت ألا تفقدها.

وكانت الأكمة كثيفة سوداء واصطدمت وهي تجري بعوائق لاتعرف معناها.
ولم يكن هناك فم وكان المطر لا يزال يهطل بلا انقطاع.
وشعرت بشيء من الارتياح لأنها كانت ليلة مظلمة. فعلى الأقل لم يكن من
السهل رؤية شبحها.

وكان كل مكان مشبعاً بماء المطر الغزير، ومالبت العشب الصغير المبتل أن
تسلل إلى جذائنها الخفيف وهي تعدو والطين يتطاير من حوها. وفي اندفاعاتها تلك
لم تفكر فيما قد يكون أمامها، إلا من أمل ضئيل في وجود بيت لأحد المزارعين
وتجده عنده. وفكرت أنها على مسافة خمسة عشر ميلاً من منزلها، وهي مسافة
أكبر من أن تحاول أن تقطعها بمفردها.

وكانت تسمع جيف وهو يحترق الأغصان وراءها، يتنادىها مرة ومرة.
وتساءلت عما تفعل والذئب الآن وعما إذا كان يساورها قلق بالغ بشأنها. الساعة
تجاوزت التاسعة وهي لم تعد إلى المنزل منذ الصباح. وشعرت عندئذ بالأسف
بتملكها على قرارها الطائش من البيت هذا الصباح. وتساءلت إذا كانت مثل هذه
الحوادث تغير حياة الناس.

وخفت كثافة الأشجار ووجدت نفسها بعد لحظة في مكان فسيح. وتطلعت
بإعياء حوها فشاهدت بفرح وارتياح ضوءاً على البعد القريب. على مسافة حفل
أو نحو ذلك. ولم تكن الظلمة أمامها لتظهر لها شيئاً يحول بينها وبين الخلاص
فبدأت تعدو نحو مصدر الضوء.

ومالبت جيف أن خرج من أكمة الشجر بعدها بثوان. كان غضبه قد
انقضى الآن. غسله المطر الذي يبعث البرد في الأبدان. وكان يلعن نفسه على
حماسة تصرفه. كانت ديانا مذعورة وسيطر عليها الخلع. وشعر بالهزل لأن
الغلظة كانت شلخته. ولكن بقاءه هناك، جالسا يستمع إليها بهنو وهي تخرجه
من حياتها، أشعل غضبه فقرر أن يلقتها درساً. ولكن هل يمكن أن تصدق أنه

كان يقصد مجرد إخافتها؟ كان يجدر به أن يدرك، بعدما أخبرته، أنها لم تكن في
مزاج يسمح له باللهو معها. وأحسن بأنه أحق تماماً بالمسكينة. لا بد أنها فقدت
نصف حواسها من الذعر.

واستطاع الآن أن يرى شبحها أمامه فبدأ يعدو نحوها. وفجأة سمعها تصرخ
صرخة عالية ثم تختفي. فتوقف فجأة. وقلبه يخفق بشدة. وعرق بارد يغمر
جسده. ماذا حدث بالله؟

وبشعور الخوف قفز المسافة التي كانت بينه وبين المكان الذي اختفت فيه
ديانا. وسار يعدو وهو يثوب من البقعة. ويشعر بالحسباء تحت قدميه بدل
العشب الطري الذي كان يعدو فوقه. وبدأت عيناه تعتادان الظلمة قليلاً فحاول
أن يمد بصره إلى ماحوله. وإلى حيث سقطت ديانا.

واستطاع بصعوبة أن يبين حوله الآن أشكال مركبات وآلات ضخمة بدت
له إما مركبات أو ناقلات قمامة أو ربما حتى حاملات ثقالة وكانت الرؤية
عسيرة وهذا المطر لا يزال يحو كل شيء. ولكنه أدرك بالتدريج. وبالتركيز على
بقعة واحدة، أن الأرض تتحدر من تحته بشدة إلى ما يشبه مجرى لا بد أن ديانا
سقطت في الهوة. ويمكن أن تكون قد ماتت.

انثنى على ركبتيه وانحنى على حافة الحجر ونادى:
«ديانا... ديانا! هل تسمعينني؟ إذا استطعت سامعي فردي على كرامة لله»
كان صدى صوته يكتسه المطر. ولكن من المحقق أنه لم تكن هناك إجابة.
وكرر توسله مرة أخرى. ولكن لا شيء يجيبه إلا الصمت من جديد يقطع تناقض
المطر. فنهض مرتعداً ووقف يستجمع أفكاره. وهو لا يتبين ماذا سيفعله من بعد.
كان لا بد أن يحصل على نجدة. وبسرعة. ولكن كيف؟

تطلع حوله. كان الحجر ضخماً. ولم تكن هناك فائدة من العثور على طريق
من حوله. وربما المخاطرة بالسقوط فيه. كلا. إن أفضل حل بأن هو العودة إلى
السيارة وقيادتها إلى أقرب هاتف. وطلب سيارة إسعاف.

وركض عائداً باضطراب بعدما اتخذ قراره. ويداه تحتكان بالأغصان. وهو
يسقط بظوله أحياناً في العشب الكثيف. ووصل أخيراً إلى السياج وثق فيه
طرفه إلى الحافة العشبية حيث أوقف السيارة. وحاول تشغيلها فلم تستجيب.

وانشابه الذعر وتذكر برك الماء التي كان يخوض فيها عندما أوقف السيارة ، فأدرك أن الماء يملأ بعض مناطق الاشتعال ، وكان لا بد أن يمر عليها وقت لتجف . فخرج من السيارة وتطلع في اتجاه الطريق . كانت هناك سيارات كثيرة تمر من قبل ، ولا بد أن تأتي سيارة في اتجاهه . وبالفعل ، بدأت على البعد سيارة آتية من لندن . فالتحق مكانه في وسط الطريق وأخذ يلوح بذراعيه بشدة . لا بد أن يروه ، لابد أن يتوقفوا !

أبطأت السيارة عندما لمح راكبوها جيب على ضو المصباحين الأماميين واقتربت منه فتشفس الضعفاء وعدا إليها ملهوفاً ، ومناح أمام رجل وامرأة كانا يجلسان مذهولين في السيارة .
« وقع حادث . فهل تستطيع توصيلي إلى أقرب هاتف ؟ »

كان نيكولاس ينفذ سياسته ببطء وأتوارها الأمامية تضيء الطريق بوضوح تام . أما مادلين فكانت تجلس بجواره متوترة الأعصاب غمغمت في قلق :
« أيتها لن تشكرنا على أننا سعيتم وراءها . »
« يا عزيزتي مادلين ، لا أهتم في هذه اللحظة أبداً بمساعري ديانا ، ليس من حقها أن تحتفي على هذا التحرك . »
تهدت مادلين قائلة :

« اعتقد أنك على صواب ، ولكنني ساكون مسرورة إذا وجدتتها في أي حال . »
وفجأة تسلب نيكولاس في متعبه ، وهتف :
« أليس هذا هو القسي الذي كانت معه ؟ »

كانا يقتربان من سيارة تقف على الجانب الآخر من الطريق . وكان هناك قسي واقفاً يتحدث إلى السائق . وقد بدا مبتلاً ومسخماً . من المؤكد أنه جيف .
بردت أطراف مادلين وصاحت :

« أوه ، يا نيكولاس ، هل تعتقد أنه وقع حادث ؟ أين ديانا ؟ »
« استعرف ذلك فوراً . »

كان نيكولاس قد أوقف السيارة قبل أن تخرج الكلمات من فمه . وعبر الطريق بسرعة إلى السيارة الأخرى التي كان جيف على وشك أن يركبها .
« تطلع جيف إليها في طلع . وهو لا يكاد يصدق أنها شاهداً . وكانت مادلين قد جاءت خلف نيكولاس مباشرة : »

« سيد فيثال ... سيده سنكوت ! »
أغلق باب السيارة مرة أخرى وأخذ ينظر إلى السائق حائراً ، وصاح :
« لقد وقع حادث ... سقظت ديانا في أحد المحاجر ! »
« ماذا ! »

هتفت مادلين بالسؤال وهي تشعر بأنها أقرب إلى الاغماء والموت ، ولكنها بذلت كل ماقلك من جهد لتبقى في وعيها . وقال نيكولاس بهدوء لها :
« اثبتني ... »

ثم التفت إلى جيف قائلاً :
« كم يبعد هذا الحجر من هنا ؟ »
« إنه ليس ... ليس بعيد ... غير هذه الأيكة من الأشجار . »

صاحت مادلين في عجب وحيرة :
« وماذا كنتما تفعلان بحق السماء قرب الحجر ؟ »
« فلما بعد ... فلما بعد . »

قال نيكولاس ذلك وهو يضغط ذراعها للتحفة . ثم سأل جيفه :
« أين كنت ذاهبا ؟ »
« هذه السيارة هناك ... تحت تلك الأشجار ... لم أستطع تشغيلها ، فأشرت إلى هؤلاء الناس ، وكنت ذاهباً في طلب النجدة . »

قال الرجل في السيارة . وكان يبدو مزارعاً :
« هذا صحيح . »

فكر نيكولاس برهة ثم قال :
« هل تستطيع يا جيف أن تعطينا تعليقات بشأن الوضوئل إلى هذا الحجر ؟ »
بدأ جيف شاحب الوجه ، متوتراً ، في وصف الأنوار الأمامية وقال :

« نعم ، أظن ذلك . لماذا ؟ »

«حسنًا أقترح أن نذهب أنت إلى الهاتف في طلب النجدة كما كنت تنوي ، وسأذهب أنا ومادلين للبحث عن ديانا ، ربما تتمكن من العثور عليها. وعندى بطارية في السيارة . فهل أنت متأكد أنها سقطت في المحجر؟»

يلع جيف ريقه بصعوبة وقال :
«متأكد تمامًا»

فحدثت فيه مادلين وقالت بصوت مختنق :

«سنطلب تفسيراً عن هذا . يا جيف !»

قال جيف ، وهو يبدو خائفاً مروعاً تماماً :

«حاضر يا سيده سكوت .»

أما نيكولاس فشرع يعمل فوراً ، تولى القيادة كعادته في العمل منذ عشرين عاماً ، وتساءل :

«أين هذا المحجر؟»

تلطم جيف وهو يصف لها المكان ، ويهتف المزارع :

«إنه مكان دانيسون القديم . لماذا لم أفكر في هذا من قبل ؟ من السهل العثور عليه . إنه مكان ضخم . لا أريد أن أثير فيكم الأمل يا سيده سكوت ، ولكن هذا المحجر كتلة من الأطراف والنسوات . ومن المحتمل أن تكون ابنتك سقطت لعدة أقدام فقط . سقطت تكفي لأصابتها بدوار وجعلها عاجزة عن الرد عندما ناداها هذا الفتى»

أومأت مادلين برأسها قائلة :

«أمل أن تكون على صواب .»

مضى الرجل قائلاً ، ونيكولاس على وشك عبور الطريق لاحتضار البطارية :

«في أي حال لني حبل في صندوق السيارة فهل تود أن تأخذ معك ، في حالة الوصول إليها»

قال نيكولاس على الفور :

«بالأكيد ، هذه فكرة طيبة»

فترجل المزارع من السيارة ومضى إلى صندوقها قائلاً :

«أحتفظ به دائماً لحالات الطوارئ» ، ففى الحارة التي تقطنها ، والتي تصبح مستنقاعاً في الشتاء ، كثيراً ما أضطر إلى استعمالها»

وثاول نيكولاس الحبل ثم ركب السيارة قائلاً :

«هناك كشك للهاتف في الجوار القريب ، على بعد ميلين من هنا . وسيكون لديكما العون حالاً»

«أشكرك»

مضت السيارة وأخذ نيكولاس ومادلين ، ومعها البطارية ، يشقان طريقهما عبر السباح وداخل الأيكة . كان المطر لا يزال يهطل بشدة ، فصرغان مايلفهما على نحو ماحدث لجيف .

وكان الشعاع القوي من البطارية يقضي لها الطريق وكان من السهل العثور على حافة المحجر وتبين سهولة السقوط فيه . وركب نيكولاس على يديه وركبته وندى :

«ديانا قل لسمعتني؟»

ولم يتلق ردّاً فتهض وبدأ يتفقد المحجر بشعاع البطارية مضيقاً كل جانب منه . وكما قال المزارع كان المحجر بمثابة صرح غير مستو انتشرت على جوانبه يروزات عظيمة من الصخر وثمة أشجار وشجيرات متشعبة بيضاء . ينظر منها انقاء ، تعطينه مظهراً غريباً . وارتعدت مادلين وهي تتساءل إذا كانت ديانا حقاً في هذه الهوة السوداء . ماذا لو سقطت إلى القاع ؟ تساءلت عن عمق الهوة واقترخت أنها في عمق يتجاوز مائة قدم . أما نيكولاس فكان متشاكاً في تفكيره وتصرفه . ورغم أن تفحصه البطارية للمحجر بدا كأنه استغرق ساعات ، إلا أنه لم يأخذ في الحقيقة سوى بضع دقائق قال بعدها :

«أعتقد أنني وجدتها»

وضعت مادلين يدها على عنقها وقالت :

«أين ؟»

أشار نيكولاس بالبطارية فألقى شعاعها على الفتاة الفاتكة الوعي . كانت ترقد بين أغصان شجيرتين ، وقد تدلى رأسها وأسد جسمها متأرجحاً بين الشجيرتين . فتلفت مادلين الصعداء إذ كانت المسافة نحو خمسة عشر قدماً

فقط . من المؤكد أنها لم تصب إصابة جسيمة . صاحت :

«أوه، شكراً لله ! لعل السقطة أفقدتها الوعي . ولكنها لم تسقط بعيداً على الأقل .»
ونظمت إلى نيكولاس ولكن وجهه كان يبدو متجهماً حتى في الضو الخافت
من وراء شعاع البطارية :

«ماذا حدث ؟ إنها سليمة . أليس كذلك ؟ لا تعتقد أنها مصابة إصابة
خطيرة... أليس كذلك ؟»

هو نيكولاس رأسه قائلاً :

«كلا يا حبيبتى . لا أعتقد أن إصاباتها خطيرة .»

ولماذا تبدو قلماً هكذا ؟

قطب نيكولاس جبينه قائلاً :

«أسمع يا مادلين . لا أريد أن أقول لك هذا . ولكن إذا أفادت ديانا . وتحركت .»
خففت مادلين يدها على فمها وقالت :

«أنت تعني أنها لن تدرك الخطر من حولها .»

«بالضبط الأمر محتمل . والأرجح أنها لن تفيق قبل أن تصل النجدة . ولكن هل
تتجمل هذه المخاطرة ؟»

بلعت مادلين ريقها بصعوبة . وهي تشعر بغثيان طفيف . وقالت :

«وما هو البديل ؟»

فضغط نيكولاس شفتيه وقال :

«أن أنزل أنا إليها . على الحبل . وأربطه حولها . ثم أفك من الصعود ورفعها
أيضاً . وإذا لم أستطع الصعود فإن هذا لن يهم . في وسعي الانتظار . على الأقل
ستكون في حال مأمونة وهي مربوطة بالحبل . إذا ما تحركت .»

تهتدت مادلين بتساؤل وقالت :

«وهل هذا هو البديل الوحيد ؟»

«هل يمكنك أن تفكري في شيء آخر؟ هيا يا حبيبتى . إننا نضيع الوقت . والآن
اسمعي... سأربط هذا الحبل حول تلك الشجرة هناك . وكل ما أريده منك هو أن
تسلطي على شعاع البطارية وأنا أنزل .»

قبل أن يربط الحبل حول الشجرة عقد فيه عدة عقدات بطوله . فقطبت

مادلين جبينها قائلة :

«ولماذا هذه ؟»

«إنها تساعد المرء على الصعود والهبوط على الحبل . فهذه العقدات بمثابة مواطئ
أقدام . هاهنا بهجة السيرك كله ياسيدتى .»

كان يحاول أن يخفف عنها توترها . وكانت تعلم ذلك . وتساءلت كم من الرجال
يمكن أن يحاطروا بحياتهم على هذا النحو من أجل فتاة تعاملهم دائماً بعدم
اكتراث تام . أما بالنسبة إلى نيكولاس فكان النزول على الحبل مهمة بطيئة . إذ
مرت سنوات بدون أن يقوم بحركة شبه بهلوانية . فكان من الطبيعي أن يكون
متصبلاً . وأخذت «مادلين» ترقبه في قلق . وهي تخشى عليه مثلما تخشى على
ديانا . وهبط إلى مكان أدنى مما فيه ديانا . وحاول أن يجد موطناً لقدمه في جدار
المحجر . ولكن لم يكن هناك موطن . وكانت هناك بدلاً من ذلك بعض
الشجيرات المتسعة . فاستطاع أن يرتكن إلى إحداها على نحو كفء له أن يطلق
الحبل ويربطه حول ديانا . وكانت أسوأ لحظة تلك التي حاول فيها أن يجعل
الحبل من تحتها فتتحرك جسمها وأوشك أن يسقط عليه ويفقده توازنه . ولكنه
أمسك بأقرب شجرة إليه واستطاع دفعها إلى حيث كانت . وتعلق في لحظة
بالشجيرة وهو لاهث الأنفاس حتى تمكن من استرداد ثقته وأنفاسه .

أما مادلين فكنت الصبحة من فمها ولم يبد ذعرها إلا من خلال اهتزاز
ضو البطارية في يدها . وأخيراً . أمكن ربط ديانا بطرف الحبل على نحو مأمون .
وكانت لا تزال فاقدة الوعي . واستطاع نيكولاس أن يرى ندبة قبيحة على
جبهتها . ولكن فيما عدا ذلك بدت على مايرام . وكانت مبتلة تماماً بالطبع . فشعر
بالقلق من احتمالات الصدمة في مثل هذه الأحوال .

وبتدبر محكم . صعد على الحبل ببطء وهو يشعر بالامتنان لأنه عقد العقدات
التي كفلت مواطئ . ليدبره وقدميه معاً . وساعدته مادلين على الصعود فوق
الحافة . وظل لحظة راقداً بلا حراك على السطح الطيني . فهست إليه وهي تم
بيدها على شعره المبطل :

«هل أنت على مايرام ؟»

فتنهت ونهض على ركبتيه قائلاً :

«طبعاً مجرد عطل في الحركة، هذا كل شيء! لابد في الواقع أن أمارس رياضات أخرى غير الغولف. فهذا يظهرني في حال يرثى لها».

ساعدته مادلين على النهوض ثم تعلقت به لحظة. وقالت بصوت أجش: «لا أدري ماذا كان يوسعي أن أفعل بدونك».

فانحنى وقبل رأسها ثم أبعدا عنه بعزم قائلاً وهو يرتدي المعطف الذي خلعه لدى صعوده: «أعتقد أنه يحسن بنا الآن أن نجذبها. لا أحب فكرة بقائها مكشوفة على هذا النحو».

أومأت مادلين برأسها قائلة: «هل يمكن أن نجذبها بدون أن تصاب بنز؟».

أوماً نيكولاس برأسه ببطء أيضاً وقال: «أعتقد ذلك. إن جانب المحجر ينحدر إلى الداخل قليلاً. وهذا يمكننا من جذبها إلى أعلى برفق تام».

ورغم ذلك استغرق الأمر بضع دقائق لجذب الفتاة الفاقدة الوعي. وكانت بمثابة كتلة صماء واضطر نيكولاس إلى أن يشول معظم الجذب. وأخيراً بلغت الحافة فانحنى ورفعها ونقلها لترقد على العشب تحت الأشجار في نهاية الأيكة. وخلق معطفه ووضعها عليها وهو يمر يديه على جسدها ليتحقق مما إذا كانت هناك عظام مكسورة ثم تطلع إلى مادلين قائلاً: «أعتقد أنها على مايرام. لا أشعر بكسور، ولكن هناك احتمال الارتجاج. هل تظنين أنه يجب علينا نقلها إلى السيارة؟ ستكون هناك في جوفاء على الأقل. ونحن لا نريد أن نخاطر بإصابتها بالتهاب رئوي».

أومأت مادلين برأسها، فرفع نيكولاس ديانا بين ذراعيه وحملها عبر الأشجار وهي لا تزال ملفوفة بمعطفه. وفي أعقابها كانت مادلين تضيء المصباح على أحسن ما تستطيع، ولكن نيكولاس بدا واثقاً من خطو قدميه. وبينما كانا يقتربان من السياج سمعا نغير الخطر يعلن وصول سيارة الاسعاف. فابتسم نيكولاس لمادلين مداعباً وقال: «ها هي النجدة. إنها تصل كالعادة بعد أن ينتهي الأمر. إلا من الصباح».

وكانت الساعات القليلة التالية بمثابة كابوس، فقد وصل رجال البوليس أيضاً وأتروا أن يعرفوا كل التفاصيل. ونقلت ديانا مباشرة إلى سيارة الاسعاف التي نقلتها، بصحبة مادلين، إلى مستشفى أوتربري العام. وأفاقت في السيارة ولكن كلماتها كانت تفتقر إلى المعنى. ورغم أنها عرفت مادلين فيها يبدو إلا أنها لم تتحدث إلا قليلاً ثم غابت عن الوعي مرة أخرى.

وقال الطبيب الذي كان في سيارة الاسعاف إنها في حالة صدمة ولكنه لا يعتقد من الفحص القصير الذي أجراه أنها مصابة في جسدها. فهي لا تعاني من عظام مكسورة، أما التندوب فهي مجرد رضوض طفيفة.

ووضعت ديانا في جناح بناء على تعليمات نيكولاس. وكان قد تبع سيارة الاسعاف في سيارته، ومعه جيف، الذي كان البوليس قد تولى استجوابه.

وبعد التأكد من أن ديانا ستكون على مايرام، سيق جيف إلى مركز البوليس للإدلاء بأقواله. وبعد أن أفضى ببعض التفاصيل اكتفى الضابط بتحذيره من مغبة مثل هذا الطيش وسمح له بالعودة إلى المنزل.

وبقيت مادلين في المستشفى. ولم يكن هناك ما تستطيع أن تفعله. ولكنها قبلت باهتمام الفرائض الذي عرضته عليها الأخت الممرضة.

ولم تتم كثيراً. أما نيكولاس فقد عاد إلى فندقه. وكانت موقنة أنه يدرك الآن أنه ليس في وسعها بعد ما حدث أن ييلقا ديانا بأنها يريدان الزواج فوراً. أفلحت ديانا في إرجاء الأمور حقاً هذه المرة، ولكن بغير قصد.

«مثل الآن؟»

«ماذا تعنين؟»

«أعني بشأنك أنت. ونيكولاس فينال ... هل يريد حقاً أن يتزوجك؟»

«كيف اكتشفت ذلك؟»

«كان واضحاً منذ وقت طويل. وكنت عتيبة على تحول لم أستطع معه أن أصدق. وأعتقد أنني كنت مغالية في شعوري تحوكم بالامتلاك. اتهمني جيف بأنني طفلة ولكنني أعتقد أنني كبرت الآن. فعلت ماكنت تريه صواباً طوال حياتي وكانت النتيجة أنني أصبحت شديدة الاعتقاد عليك. ولو عرفت أن جو لم يكن هو والدي ربما كنت أصبحت أكثر استقلالاً. وعندما مات ازدادت تعلقاً بك لأن عالمي كان يتهاوى فيما يبدو. وإنني أرى الآن أنه لم يكن كذلك. لانتدشي بألمه والا غيرت رأي!»

بعد ذلك شهرين كان اليخت ماريا كريستينا يرسوفي خليج مونشي كارلو، وعلى متنه كانت مادلين تتمدد بالبيكني في كسل. وجاء من يضع على ظهرها كوباً مثلياً فانتفضت جالسة لتجد نيكولاس. ابتمس لها مداعباً. وناولها كوب الشراب قائلاً:

«كانت هذه أسرع طريقة لأرغامك على النهوض. كنت تبدين بالغة الرضى وأنت راقدة.»

تهدت مادلين في ارتياح وقالت:

«أنا راضية يا حبيبي. لم أشعر بسعادة مثل هذه من قبل فيه حياتي.»

«وإنني لأجد الفردوس في أي مكان تكونين فيه معي يا حبيبتني.»

واقتربت منه وأخذت تعبت بأصابعها في صدره. وتساءلت عما تفعله الفتاتان الآن كانت ديانا وماريا قد طارتا بعد الزواج الذي عقد منذ ستة أسابيع إلى فيليستيا مع والدته نيكولاس. بينما طارت مادلين ونيكولاس مباشرة إلى نابولي بعد قضاء عطلة نهاية الأسبوع في باريس. ثم أقلها اليخت من هناك في رحلة شهر العسل بين الجزر اليونانية... قال نيكولاس في تراج:

«سنجد تغييراً كبيراً في ديانا. ماريا عظيمة في الإصلاح. وهي تشبه جدتها. وفيما بينها ستبده أية شكوك باقية في نفس ديانا. وغدا نظير إلى روما ونذهب

١٢ - ازرق لون السعادة

وفي الصباح التالي قامت مادلين بزيارة انتهت في غرفتها لتطمئن عليها. وكانت مستيقظة. فاعترفت لها بأسفها لأنها سبت لها كل هذا القلق. وتساءلت إذا كان نيكولاس هو الذي أخرجها من المحجر. فردت عليها بالإيجاب. ومالبت ديانا أن أمسكت بيد أمها بقوة وتساءلت:

«أكان ذلك صحيحاً؟ ماقلناه بشأني؟»

أومأت مادلين برأسها وتهدت قائلة:

«أنا أسفة. ياديانا. أعرف أنها كانت صدمة لك. ولا أدري ماذا أقول.»

«لا عليك. قال لي جيف شيئاً بالأسوأ أنه حكياً. قال إنه كان في وسعك أن تتركيني للتبني أو تضعيني في ملجأ.»

«ولكنني أحبك! هذه اللحظة التي تلقيتك فيها بين ذراعي. ولم يطرأ على ذهني أن أخلص منك أبداً.»

«ويبدو أن والذي كان يعلم بكل شيء.»

«كان يعلم. لقد عشت مع جدتك يا حبيبتني وكان قلبها لينفطر حزناً لو أنها علمت. وكان جو يريد أحداً يعني به. فعدنا صفقة. حصل على مديرة لمنزله وحصلت على زوج... بالاسم فقط.»

«فهمت... ولماذا لم تخبريني؟»

«كنت مفرطة الجبن. ويبدو أنني أخذت منهج أقل المقاومة في معظم الأمور.»

ضغطت ديانا على يدها وتساءلت:

إلى فيليتيّا. وفي عطلة الأسبوع نعود إلى روما وأريك منزلي. هل تتطلمين إلى ذلك؟

«أنت تعلم هذا، بيتنا، هذا يبدو رائعاً»

سيكون الأمر كذلك. وسنكون وحدنا لفترة. لقد وافقت والدتي على إبقاء

الفتاتين معها في فيليتيّا، فهي تترك حاجتنا إلى الانفراد»

تحدثت مادلين وتطلعت إلى السماء الصافية. لم تكن فيها سحابة واحدة.

هذا هو حقاً أفق مستقبلها.

sarah
liilas.com